تذكير وتقريع بني إسرائيل
ودعوتهم للتصديق بدعوة النبي (ص)

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ البقرة ٤٠-٤٦

أما تفسيرها بحسب:

***ابن كثير:**

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ البقرة ٤٠

يأمر تعالى بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهيجاً لهم بذكر أبيهم (إسرائيل) وهو نبي الله يعقوب عليه السلام، وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم افعل كذا، يا ابن الشجاع بارز الأبطال، يا ابن العالم أطلب العلم، ونحو ذلك. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾ الإسراء: ٣. فإسرائيل هو يعقوب بدليل ما رواه ابن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله (ص) فقال لهم: ((هل

تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟))، قالوا: اللهم نعم، فقال النبي (ص): ((اللهم اشهد)). وعن ابن عباس: أن إسرائيل كقولك عبدالله.

وقوله تعالى: ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك أن فجّر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، ونجاهم من عبودية آل فرعون. وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب. قلت: وهذا كقول موسى (ع) لهم: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾المائدة: ٢٠ يعني في زمانهم. وقال محمد ابن إسحاق عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾أي: بلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم من فرعون وقومه، ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾، قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي (ص) إذا جاءكم، أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحدائكم. وقال الحسن البصري: هو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ المائدة: ١٢

الآية. وقال آخرون: هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بني إسماعيل نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب والمراد به محمد (ص)، فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين. وقد أورد الرازي بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمحمد (ص).

وقال أبو العالية ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ ﴾ ، قال: عهده إلى عباده دين الإسلام وأن يتبعوه. وقال الضحاك ﴿ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ أي: أرض عنكم وأدخلكم الجنة، وقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ أي فاخشون، وقال ابن عباس: في قوله

تعالى:﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ أي: أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التي قد عرفتم من المسخ وغيره، وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة، لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول (ص) والاتعاظ بالقرآن وزواجره، وامتثال أوامره وتصديق أخباره، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ولهذا قال: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ ﴾ يعني به القرآن الذي أنزل على محمد (ص) النبي الأمي العربي بشيراً ونذيراً، وسراجاً منيراً، مشتملاً على الحق من الله تعالى، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، قال أبو العالية:﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ ﴾، يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم، يقول: لأنهم يجدون محمداً (ص) مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾البقرة ٤١

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ ﴾ قال ابن عباس: ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم، قال أبو العالية: ولا تكونوا أول من كفر بمحمد (ص) بعد سماعكم بمبعثه، واختار ابن جرير أن الضمير في قوله (به) عائد على القرآن الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿ بِمَآ أَنزَلۡتُ ﴾، وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد (ص)، ومن كفر بمحمد (ص) فقد كفر بالقرآن، وما قوله: ﴿ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ ﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل، لأن قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا ﴾ يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان

بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها فإنها قليلة فانية، سئل الحسن البصري عن قوله تعالى: ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ قال: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها. وعن سعيد بن جبير: إنَّ آياته: كتابه الذي أنزله إليهم، وإن الثمن القليل: الدنيا وشهواتها؛ وقيل: معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس بالكتمان واللبس، لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب، وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص): ((من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلاَّ ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرَ رائحة الجنة يوم القيامة)) فأما تعليم العلم بأجرة فإنْ كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند (مالك والشافعي وأحمد)، وجمهور العلماء كما في قصة اللديغ: ((إنَّ أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله))، وقوله في قصة المخطوبة: ((زوجتكها بما معك في القرآن)).

وقوله: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ عن طلق بن حبيب قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله، رجاء رحمة الله، على نور من الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله، ومعنى قوله: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ أنه تعالى يتوعدهم في ما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول (صلوات الله وسلامه عليه).

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ البقرة ٤٢-٤٣

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل وتمويهه به، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ

﴿ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فنهاهم عن الشيئين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به. ولهذا قال ابن عباس ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب، وقال أبو العالية: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمد (ص)، وقال قتادة: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾: ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله. عن ابن عباس: ﴿ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم. وقال مجاهد والسدي: ﴿ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ ﴾ يعني محمداً (ص): (قلت): وتكتموا يحتمل أن يكون مجزوماً ويحتمل أن يكون منصوباً أي: لا تجمعوا بين هذا وهذا، كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. قال الزمخشري: وفي مصحف ابن مسعود ﴿ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ ﴾ أي: في حال كتمانكم الحق، ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ حال أيضاً، ومعناه وأنتم تعلمون الحق ويجوز أن يكون المعنى وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس، من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار، إنَّ سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم، والبيان: الإيضاح، وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل. ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ قال مقاتل: أمرهم أن يصلوا مع النبي (ص). ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أمرهم أن يؤتوا الزكاة أي: يدفعونها إلى النبي (ص). ﴿ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد (ص). يقول: كونوا معهم ومنهم.

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة ٤٤

معناه: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر ـ وهو جماع الخير ـ أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به، وأنتم مع

ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصّر في أوامر الله؟

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنتبهوا من رقدتكم، وتتبصروا من عمايتكم؟ وهذا كما قال قتادة في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله، وبتقواه ويخالفون، فعيّرهم الله عزَّ وجلَّ: وقال ابن عباس: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تتركون أنفسكم ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة وتتركون أنفسكم، أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي وتجحدون ما تعلمون من كتابي. وقال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية: يقول أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد (ص) وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة وتنسون أنفسكم.

قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً، وقال عبد الرحمن بن أسلم في هذه الآية: هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل سألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة أمروه بالحق، فقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ والغرض أن الله تعالى ذمّهم على هذا الصنيع، ونبّههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب (ع): ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ هود: ٨٨ .

فكلّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصح قولي العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف

وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبته، قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر.

(قلت): لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم، ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك كما قال رسول (ص): ((مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه)). قال رسول الله (ص): ((مررت ليلة أسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا، ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون))، وقال (ص): ((يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه))، وقد ورد في بعض الآثار أنه يغفر للجاهل سبعين مرة، حتى يغفر للعالم مرة واحدة، ليس من يعلم كمن لا يعلم. وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾الزمر: ٩ ، وروي عن النبي (ص) أنه قال: ((إنَّ أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار، فيقولون بم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلاَّ بما تعلمنا منكم، فيقولون: إنّا كنا نقول ولا نفعل)).

وجاء رجل إلى ابن عباس فقال يا ابن عباس: إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أبلغْتَ ذلك؟ قال: أرجو، قال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله تعالى:﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾البقرة: ٤٤ أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني، قال: قوله تعالى: ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا

﴿لَا تَفْعَلُونَ﴾ الصف: ٢ - ٣ أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثالث، قال: قول العبد الصالح شعيب (ع): ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ هود: ٨٨ أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فابدأ بنفسك.. وقال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾، وقوله إخباراً عن شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ هود: ٨٨.

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ البقرة ٤٥

يأمر تعالى عبيده فيما يأملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة كما قال مقاتل في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة. فأما الصبر فقيل: إنه الصيام.

قال القرطبي: ولهذه يسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث: ((الصوم نصف الصبر)) وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصي، ولهذا قرنه بأداء العبادات، وأعلاها فعل الصلاة. قال عمر بن الخطاب: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله. وقال أبو العالية: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ على مرضاة الله واعلموا أنها من طاعة الله وأما قوله: ﴿وَالصَّلاةِ﴾ فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ العنكبوت: ٤٥ الآية.

وكان رسول الله (ص) إذا حزّ به أمر فزع إلى الصلاة، وعن علي (ع) قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله (ص) يصلي ويدعو حتى أصبح. وروي أن ابن عباس نعي إليه أخوه قثم وهو في سفر، فاسترجع ثم تنحّى عن الطريق، فأناخ فصلّى ركعتين أطال فيها الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾، والضمير

في قوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ عائد إلى الصلاة، ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك كقوله تعالى في قصة قارون: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ القصص: ٨٠ ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فصلت: ٣٥ أي وما يلقى هذه الوصية إلاَّ الذين صبروا، وما يلقاها أي: يؤتاها ويلهمها إلاَّ ذو حظ عظيم. وعلى كل تقدير فقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ أي: مشقة ثقيلة إلاَّ على الخاشعين، قال ابن عباس: يعني المصدقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: المؤمنين حقاً، وقال أبو العالية: الخائفين، وقال مقاتل: المتواضعين، وقال الضحاك ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ قال: إنها لثقيلة إلاَّ على الخاشعين لطاعته، الخائفين سطوته، المصدقين بوعده ووعيده. وقال ابن جرير معنى الآية: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ البقرة: ٤٥ أي: المتواضعين المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته. هكذا قال، والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ البقرة ٤٦

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي: أن الصلاة لثقيلة إلاَّ على الخاشعين الذي يظنون أنهم ملاقوا ربهم، أي يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه وأنهم إليه راجعون أي أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء، سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات. فأما قوله: ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ قال: الظن ههنا يقين، وعن ابن جريج: علموا أنهم ملاقوا ربهم كقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ يقول علمت.

(قلت) وفي الصحيح: إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ((ألم أزوجك ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟))، فيقول: بلى، فيقول الله تعالى: ((أظننت أنك ملاقيّ؟))، فيقول: لا، فيقول الله: ((اليوم أنساك كما نسيتني)). وسيأتي مبسوطاً عند قوله تعالى: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ ﴾التوبة: ٦٧، إن شاء الله تعالى.

***الشيخ مغنية:**

ذكر الله سبحانه اليهود في العديد من الآيات وبيّن نعمه عليهم، وجحودهم بها وقتلهم الأنبياء بغير الحق ومعاندتهم لموسى وهارون، وعبادتهم العجل، واستعباد الفراعنة لهم، ثم تحريرهم من العبودية والاضطهاد ونجاتهم من الغرق، وإنزال المن والسلوى عليهم، ثم كرههم ومؤامراتهم على محمد (ص) وعداءهم الشديد للمسلمين وللحق وأهله، وقد حوَت سورة البقرة التي ذبحوها، وما كادوا يفعلون، الكثير الكثير من صفاتهم وأعمالهم.

الإعراب: إسرائيل مجرور بالإضافة، ومنع من الصرف للعجمة والتعريف، وإياي ضمير منصوب على أنه مفعول لفعل محذوف دلّ عليه الموجود أي إرهبوا إياي، ولا يجوز أن يكون مفعولاً لما بعد الفاء لأن ما بعدها لا يعمل بما قبلها. وترهبون تقديره ترهبوني، وقد حذفت الياء للتخفيف وموافقة رؤوس الآيات ومثله فاتقون، وأنزلت مفعوله محذوف تقديره أنزلته ومصدّقاً حال منه.

إسرائيل اسم ثان ليعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن فاسحق أخ لإسماعيل جد نبينا محمد (ص) ويلتقي اليهود والعرب جميعاً في إبراهيم قال تعالى ملّة أبيكم إبراهيم وجاء في مجمع البيان أن العرب كلهم من ولد إسماعيل، وأكثر العجم، أي غير العرب، من ولد إسحق ومعنى إسرائيل في اللغة العبرية «عبدالله»، لأن «إسرا» هو العبد و«ئيل» هو الله وقد تلطف سبحانه في خطابه مع اليهود، حيث أضافهم إلى النبي الكريم إسرائيل،

ليذكرهم بهذا النسب الشريف، عسى أن يحرك فيهم شعور الكرامة، إن كان في نفوسهم شيء منها، تماماً كما تقول يا ابن الأبرار كن كآبائك وأجدادك وأما وجه تسميتهم باليهود فلأن سبطاً منهم ينتمي إلى يهوذا وهو الإبن الرابع للنبي يعقوب والفراعنة اضطهدوا اليهود، وساموهم الخسف والعذاب، فذبحوا الأبناء، واستحيُوا النساء واتخذوا منهم خدماً وعبيداً، ثم أرسل الله نبياً منهم ولهم وهو موسى بن عمران (ع) فحرَّرهم من الظلم والاستعباد ثم طلب إليهم العودة إلى فلسطين، وقتال أهلها، ووعدهم بالنصر، فتقاعسوا جبناً وخوفاً. فكتب الله عليهم أن يتيهوا في صحراء سيناء أربعين سنة وفي هذه البرهة توفى هارون ثم أخوه موسى، فخلفه ابن أخته يوشع بن نون وحوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بهم يوشع على أرض فلسطين، فاحتلوها، وأبادوا معظم أهلها، وشردوا البقية الباقية تماماً كما صنع نسلهم الصهاينة في فلسطين سنة ١٩٤٨ وبعد يوشع أرسل الله منهم الكثير من الأنبياء، وفي سنة ٥٩٦ قبل الميلاد أغار على فلسطين ملك بابل وهو بخت نصّر فأزال ملكهم من فلسطين، وذبح منهم كثيراً واسر كثيراً وظلّوا في حكمه إلى سنة ٥٣٨ قبل الميلاد، حيث تغلب ملك الفرس على بختنصّر، فتنفس اليهود الصعداء، واستمروا تحت سيطرة الفرس زهاء مئتي عام، وبعدها وقعوا تحت حكم الإسكندر الكبير، ثم تحت سطيرة الرومان وفي سنة ١٣٥ ق.م. ثار اليهود على الرومان، ولكن هؤلاء تغلبوا على اليهود، وأخمدوا ثورتهم، ثم أخرجوهم من فلسطين، فهاموا على وجوههم في بقاع الأرض شرقاً وغرباً، شرذمة في مصر، وأخرى في لبنان وسوريا، وثالثة في العراق، ورابعة في الحجاز، أما اليمن فقد عرفها اليهود، ورحلوا إليها للتجارة في عهد سليمان الذي تزوج ملكة اليمن بلقيس أما نعم الله عليهم التي أشار إليها بقوله ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ فكثيرة، منها اختيار الأنبياء منهم كموسى وهارون ويوشع وداود وسليمان وأيوب وعزير وزكريا ويحيى وغيرهم ومريم أم عيسى إسرائيلية

ينتهي نسبها إلى داوود ولكن اليهود لا يعترفون بالسيد المسيح ابن مريم (ع)، ويزعمون أن المسيح المذكور بالتوراة لم يأتِ بعد.

محمد ويهود المدينة:

حين هاجر الرسول (ص) من مكة إلى المدينة كان فيها من اليهود ثلاث عشائر بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير، وقد أنشأوا فيها معاصر للخمور، ومراعي للخنازير، وكانوا يحتكرون صياغة الذهب والفضة وصناعة الأسلحة، ويتاجرون بالربا وبعد مكوث النبي (ص) بالمدينة شعروا بالخطر المباشر على أرباحهم وامتيازاتهم، لأن شباب المدينة لن يترددوا بعد اليوم على حوانيتهم ومواخيرهم، وأهلها لن يأكلوا لحوم الخنازير، ومعنى هذا أن اليهود يفقدون جميع مصادر الثراء والأرباح ومن أجل هذا أخذوا يكيدون للرسول الأعظم (ص) ويتآمرون مع المشركين ضد المسلمين وكأن النبي يوم دخل المدينة، وعرف أوضاعها قد تنبأ بذلك وحسب له فأراد أن يلقي الحجة عليهم ويأخذهم بأقوالهم فترفّق بهم، وتلطّف معهم، فأجرى عهداً بينه وبينهم، موقّعاً منه ومنهم، على أن لهم الحرية التامة في دينهم، وأموالهم ومعابدهم آمنين عليها شريطة أن لا يعينوا عليه عدواً، وإذا اختاروا القتال معه فلهم نصيب من المغنم وعليهم أن يشتركوا مع المسلمين في الدفاع عن المدينة تحقيقاً للوحدة الوطنية لكن سرعان ما نكثوا العهود والمواثيق.

المعنى:

ابتدأ الله سبحانه خطابه مع اليهود بالتذكير بنعمه عليهم ككثرة الأنبياء فيهم، وتشريفهم بالتوراة والزبور، وتحريرهم من فرعون، ونجاتهم من الغرق، وإنزال المن والسلوى عليهم، والخطاب بظاهره موجهاً إلى يهود المدينة ولكن النعم المشار إليها منحها الله لآبائهم لا لهم والنعمة على الآباء، نعمة أيضاً على الأبناء وبعد أن ذكّرهم بهذه النّعم خاطبهم بقولهم ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ

﴿ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ وعهد الله هو الأخذ والعمل بما دلّت عليه الفطرة، ونزلت به الكتب من الإيمان بالله ورسله والعمل بأحكامه ثم أمرهم سبحانه أن يؤمنوا بالقرآن، ولا يسارعوا إلى الكفر به وبمحمد، وأن عليهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لتطهّر نفوسهم وأموالهم ولكن الأحبار منهم كتموا الحق على معرفة به وهم يعظون ولا يتّعظون ولذا خاطبهم الله بقوله ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ ﴾البقرة ٤٤ .

*** سيد قطب:**

في هذا المقطع من السورة يواجه السياق بني إسرائيل، أولئك الذين واجهوا الدعوة في المدينة مواجهة نكرة، وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة، وكادوا لها كيداً موصولاً لم يفتر لحظة منذ أن ظهر الإسلام بالمدينة، وتبين لهم أنه في طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها، وعزلهم من القيادة الأدبية والاقتصادية التي كانت لهم، مذ وجد الأوس والخزرج، وسد الثغرات التي كانت تنفذ منها يهود، وشرع لهم منهجاً مستقلاً يقوم على أساس الكتاب الجديد، هذه المعركة التي شنّها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد ثم لم يخب أوارها حتى اللحظة الحاضرة بنفس الوسائل، ونفس الأساليب لا يتغير إلاّ شكلها، أما حقيقتها فباقية، وأما طبيعتها فواحدة، وذلك على الرغم من أن العالم كلّه كان يُطاردهم من جهة إلى جهة، ومن قرن إلى قرن، فلا يجدون لهم صدراً حنوناً إلا في العالم الإسلامي المفتوح، الذي ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية، ويفتح أبوابه لكل مسالم لا يؤذي الإسلام ولا يكيد للمسلمين.

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن بالرسول الجديد، مذ كان القرآن يُصدّق ما جاء في التوراة في عمومه، مذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول، وعندهم أوصافه في الشارات

التي يتضمنها كتابهم وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين.

وهنا يبدأ النداء العلوي الجليل إلى بني إسرائيل، يذكرهم بنعمته تعالى عليهم ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهده معهم، وإلى تقواه وخشيته، يمهد بها لدعوتهم إلى الإيمان بما أنزله مصدقاً لما معهم. ويندّد بموقفهم منه، وكفرهم به أول من يكفر! كما يندّد بتلبيسهم الحق بالباطل وكتمان الحق ليموهوا على الناس (المسلمين) ويشيعوا الفتنة والبلبلة في الصف الإسلامي، والشك والارتياب في نفوس الداخلين في الإسلام الجديد. ويأمرهم أن يدخلوا في الصف، فيقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويركعوا مع الراكعين، مستعينين على قهر نفوسهم وتطويعها للاندماج في الدين الجديد بالصبر والصلاة، وينكر عليهم أن يكونوا يدعون المشركين إلى الإيمان، وهم في الوقت ذاته يأبون أن يدخلوا في دين الله مسلمين!

ثم يبدأ في تذكيرهم بنِعم الله التي أسبغها عليهم في تأريخهم الطويل، مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوا النعم على عهد موسى (ع) وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال، متحدّة الجبلة، كما هم في حقيقة الأمر فوق ما بدا من صفاتهم ومواقفهم في جميع العصور! ويعاود تخويفهم باليوم الذي يخاف، حيث لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها فدية، ولا يجدون من ينصرهم ويعصمهم من العذاب والجدير ذكره أن قصة بني إسرائيل هي أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم، والعناية بعرض مواقفهم والعِبرة عناية ظاهرة، توحي بحكمة الله في علاج أمر هذه الأمة المسلمة وتربيتها وإعدادها للخلافة الكبرى. وهذا ما أجمله القرآن بقوله:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ البقرة ٤٠

فأي عهد هو الذي يشار إليه في هذا المقام؟ أهو العهد الأول عهد الله لآدم

﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ

﴿كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ البقرة ٣٨-٣٩

أم هو العهد الكوني السابق على عهد الله مع آدم، العهد المعقود بين فطرة الإنسان وبارئه: أن يعرفه ويعبده وحده لا شريك له، وهو العهد الذي لا يحتاج إلى بيان، ولا يحتاج إلى برهان، لأن فطرة الإنسان بذاتها تتّجه إليه بأشواقها اللدنية، ولا يصدّها عنه إلاّ الغواية والانحراف؟ أم هو العهد الخاص الذي قطعه الله لإبراهيم جد إسرائيل ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ البقرة ١٢٤

أم هو العهد الخاص الذي قطعه الله على بني إسرائيل وقد رفع فوقهم الطور وأمرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة.

إن هذه العهود جميعاً إن هي إلاّ عهد واحد في صميمها، إنّه العهد بين البارئ وعباده أن يصغوا قلوبهم إليه، وأن يسلموا أنفسهم كلّها له وهذا هو الدين الواحد، وهذا هو الإسلام الذي جاء به الرسل جميعاً، وسار موكب الإيمان يحمله شعاراً له على مدار القرون.

ووفاء بهذا العهد يدعو الله بني إسرائيل أن يخافوه وحده وأن يفردوه بالخشية.

﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ وفاء بهذا العهد كذلك يدعو الله بني إسرائيل أن يؤمنوا بما أنزله على رسوله، مصدقاً لما معهم، وألا يسارعوا إلى الكفر به، فيصبحوا أول الكافرين، وكان ينبغي أن يكونوا أول المؤمنين.

﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ البقرة ٤١

فما الإسلام الذي جاء به محمد (ص) إلاّ الدين الواحد الخالد جاء به في صورته الأخيرة، وهو امتداد لرسالة الله، ولعهد الله منذ البشرية الأولى، يضمّ جناحيه على ما مضى، ويأخذ بيد البشرية، ويوحّد بين «العهد القديم» و«العهد الجديد». ويضيف ما أراده الله.. من الخير والصلاح للبشرية في مستقبلها الطويل، ويجمع بذلك بين البشر كلهم أخوة متعارفين، يلتقون على عهد

الله ودين الله لا يتفرقون شيعاً وأحزاباً، وأقواماً وأجناساً، ولكن يلتقون عباداً لله، مستمسكين جميعاً بعهده الذي لا يتبدل منذ فجر الحياة. وينهى بني إسرائيل أن يكون كفرِهم بما أنزلَه مصدّقاً لما معهم، شراء بالآخرة، وإيثاراً لما بين أيديهم من مصالح خاصة لهم، وبخاصة أحبارهم الذين يخشون أن يؤمنوا بالإسلام فيخسروا رياستهم، وما تدرّه عليهم من منافع وإثارات ويدعوهم إلى خشيته وحده وتقواه.

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾

قد يكون النهي هنا هو ما يكسبه رؤساؤهم من ثمن الخدمات الدينية والفتاوى المكذوبة، وتحريف الأحكام حتى لا تقع العقوبة على الأغنياء منهم والكبراء، كما ورد في مواضع أخرى، واستبقاء هذا كله في أيديهم بصد شعبهم كلّه عن الدخول في الإسلام حيث تفلت منهم القيادة والرياسة.

ويمضي السياق يحذّرهم ما كانوا يزاولونه من تلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق وهم يعلمونه بقصد بلبلة الأفكار في المجتمع المسلم، وإشاعة الشك والاضطراب.

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

لقد زاول اليهود هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق في كل مناسبة عرضت لهم، كما فصل القرآن من مواضع منه كثيرة، وكانوا دائماً عامل فتنة وبلبلة في المجتمع الإسلامي، وعامل اضطراب وخلخلة في الصف المسلم ثم يدعوهم إلى الاندماج في موكب الإيمان، والدخول في الصف وأدار عبادته المفروضة، وترك هذه العزلة والتعصب الذميم، وهو ما عرفت به اليهود قديماً.

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ ثم ينكر عليهم، أن يكونوا من الدعاة إلى الإيمان بحكم أنهم أهل الكتاب بين مشركين وهم في الوقت ذاته يصدون قومهم عن الإيمان بدين الله المصدق لدينهم بقوله تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة ٤٤

ومع أن هذا النص القرآني كان يواجه ابتداء حالة واقعه من بني إسرائيل فإنه في إيحائه للنفس البشرية ولرجال الدين بصفة خاصة، دائم لا يخص قوماً دون قوم ولا يعني جيلاً دون جيل.

إن الدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم ولكن في الدعوات ذاتها وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم لأنهم يسمعون قولاً جميلاً، ويشهدون فعلاً قبيحاً، فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل، وتخبوا في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة، وينطفئ في قلوبهم النور الذي يشعه الإيمان، ولا يعودون يثقون في الدين بعدما فقدوا ثقتهم برجال الدين.

إن الكلمة لتنبعث فيه، وتصل هامدة مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها. ولن يؤمن إنسان بما يقولون حقاً إلاّ أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول وتجسيماً واقعياً لما ينطق.. عندئذ يؤمن الناس ويثق الناس ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق... إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها، وتستمدّ جمالها من صدقها لا من بريقها.. إنها يومئذ دفعة حياة، لأنها منبثقة من حياة.

والمطابقة بين القول والفعل، وبين العقيدة والسلوك، ليست مع هذا أمراً هيناً، ولا طريقاً معبّداً. إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة، وإلى صلة بالله واستمداد منه، واستعانة بهديه، فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيراً ما تنأى بالفرد في واقعه عمّا يعتقده في ضميره، أو عما يدعو إليه غيره، والفرد الفاني ما لم يتصّل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته، لأنّ قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه وقد يغالبها مرة ومرة ومرة ولكن لحظة ضعف تنتابه فيتخاذل ويتهاوى، ويخسر ماضيه وحاضره ومستقبله فأما وهو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوي قوى، أقوى من كل قوي قوي، على شهوته وضعفه قوي على ضروراته واضطراراته، قوي على ذوي القوة والذين

يواجهونه ومن ثم يوجه القرآن اليهود الذين كان يواجههم أولاً ويوجه الناس كلهم ضمناً، إلى الاستعانة بالصبر والاستعانة بالصلاة... وفي حالة اليهود كان مطلوباً منهم أن يؤثروا الذي يعلمونه على المركز الخاص الذي يتمتعون به في المدينة وعلى الثمن القليل سواء كان ثمن الخدمات الدينية أو هو الدنيا كلها، وأن يدخلوا في موكب الإيمان وهم يدعون الناس إلى الإيمان! وكان هذا كله يقتضي قوة شجاعة وتجرداً واستعانة بالصبر والصلاة.

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ البقرة ٤٥-٤٦

والغالب أن الضمير في إنها ضمير الشأن، أي إنّ هذه الدعوة إلى الاعتراف بالحق في وجه هذه العوامل كبيرة وصعبة وشاقة إلاّ على الخاشعين الخاضعين لله، الشاعرين بخشيته وتقواه، الواثقين بلقائه والرجعة إليه عن يقين.

والاستعانة بالصبر تتكرر كثيراً، فهو الزاد الذي لا بد منه لمواجهة كل مشقّة، وأول المشقات مشقة النزول عن القيادة والرياسة والنفع والكسب احتراماً للحق وإيثاراً له، واعترافاً بالحقيقة وخضوعاً لها.

إن الصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب صلة يستمد منها القلب قوة، وتحس فيها الروح صلة وتجد فيها النفس زاداً أنفس من أعراض الحياة الدنيا ولقد كان رسول الله (ص) إذا حزّ به أمر فزع إلى الصلاة، وهو الوثيق الصلاة بربه الموصول الروح بالوحي والإلهام.

وما يزال هذا الينبوع الدافق في متناول كل مؤمن يريد زاداً للطريق، وريّاً في الهجير، ومدداً حين ينقطع المدّد، ورصيداً حين ينفد الرصيد.

واليقين بلقاء الله واستعمال الظن ومشتقاتها في معنى اليقين كثير في القرآن وفي لغة العرب واليقين بالرجعة إليه وحده في كل الأمور. هو مناط الصبر والاحتمال، وهو مناط التقوى والحساسية، كما أنه مناط الوزن الصحيح للقيم: قيم الدنيا وقيم الآخرة ومتى استقام الميزان في هذه القيم بدت الدنيا

كلها ثمناً قليلاً، وعرضاً هزيلاً، وبدت الآخرة على حقيقتها، التي لا يتردد عاقل في اختيارها وإيثارها، وكذلك يجد المتدبّر للقرآن في التوجيه الذي قصد به بنو إسرائيل أول مرة، توجيهاً دائماً مستمر الإيحاء للجميع ومن ثم يعود إلى نداء بني إسرائيل، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم، وتخويفهم ذلك اليوم المخيف إجمالاً قبل الأخذ في التفصيل.

*** السيد فضل اللّه:**

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾البقرة ٤٠-٤٤

معاني المفردات:

﴿ بِعَهۡدِيٓ ﴾: العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسُمِّي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً.

﴿ فَٱرۡهَبُونِ ﴾: الرهبة: الخوف، وتقابلها الرغبة.

﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾: التقوى في تعارف الشرع: حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور.

﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ﴾: لا تخلطوا.

في هذا الفصل من السورة يخاطب الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل الذين وقفوا أمام الرسالة والرسول، ليعطلوا المسيرة ويشوّهوا الصورة ويخلقوا البلبلة والارتباك في الذهنية المسلمة. من أجل أن يزلزلوا عقيدة المسلمين

ويهزوا قناعاتهم، وفي هذا الجو، يدخل القرآن في قضية الصراع الفكري مع اليهود من أهل الكتاب، الذين كانوا يُمثلون القوة الكبيرة في المنطقة التي انطلق فيها، وكان لهم من خلال ذلك التأثير الكبير على المجتمع، باعتبار أنهم القوة الدينية المرتبطة بالكتاب، الحاملة للرسالات.

وقد كان اهتمام الإسلام بالجوار معهم لتحقيق هدفين:

الأول: بيان الأُسس التي تجمع بين الإسلام وبين غيره من الديانات، للانطلاق من ذلك إلى إقامة الحجّة على اليهود. من خلال القواعد والقضايا المشتركة المسلمة لديهم هذا من جهة، ومن جهة ثانية، لتصحيح الانحرافات الطارئة التي أدخلها اليهود في الكتاب ممّا لم ينزّل به وحي الله.

الثاني: تعرية هؤلاء اليهود من خلال كشف الواقع العملي الذي يعيشون فيه، وذلك بفضح أساليبهم الملتوية، وتوضيح انحرافهم عن الخط الذي يدعون الناس إليه ويهملونه من سلوكهم العملي.

وفي هذا المجال قد يرد السؤال الآتي: لماذا هذا التركيز القرآني على اليهود وبني إسرائيل، على نحو لا نجده مع عموم أهل الكتاب؟

أولاً: إنّ اليهود كانوا يُمثلون القوة الدينية الكبرى المُتحرّكة التي وقفت ضد الإسلام منذ انطلق كقوة من حياة الناس في المدنية، أمّا النصارى من أهل الكتاب فلم يكن لهم دور كبير في مواجهة الإسلام من ناحية عملية، بل ربّما كان لهم دور إيجابي في بداية عهد الدعوة.

ثانياً: إن المستقبل الذي سيتحرك فيه الواقع اليهودي، يمثل الخطر السياسي والاجتماعي والأمني والثقافي على واقع المسلمين، من خلال أطماعهم في الأرض الإسلامية من جهة وفي الثروات الإسلامية من جهة أخرى.

ثالثاً: التأكيد على المسلمين رفض موالاة اليهود بالمعنى الروحي والسياسي، واعتبار ذلك بمثابة ارتداد عملي عن الإسلام يوحي بتراخي الالتزام العقيدي الداخلي للمسلمين، بما من شأنه أن يؤسس لتمكين اليهود من

إسقاطه في الواقع، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾البقرة: ٨٣ - ٨٤ .

لماذا كان هناك حوار مع بني إسرائيل يختلف عن الحوار مع المشركين؟

لأن الإسلام لا يعتبر المُشركين قوة دينية، لأن الشرك ليس فِكراً دينياً، بل هو ضدّ المنهج التوحيدي للدين، وليس هناك أية قواسم مشتركة بين الإسلام والشِرك حول المفاهيم العامة عن الكون والحياة وحول القيم التاريخية المنطلقة من خلال الرسالات، أو تلك الحاضرة المطروحة في ذلك الوقت، أو التشريعات المتعلقة بحياة الفرد والجماعة، لذلك لا يجد الإسلام أية قضايا مشتركة مع الشِرك يتحرّك الحوار في تفاصيلها، فلم يبقَ إلاّ مواجهة الشرك في جانبه الفكري من أجل إرجاع المشركين إلى عقلهم وتفكيرهم.

أمّا بالنسبة لليهود، فهناك التاريخ المشترك بين الرسالات السماوية التي يؤمن بها الإسلام كما تؤمن بها اليهودية، ممّا يستدعي التوفر على إثارة خطوات هذا التاريخ في التصور المُنحرف والمستقيم، وعلى إثارة القضايا الأساسية في العقيدة والأسلوب والتشريع والأشخاص من أجل البقاء على أرض مشتركة وتصوّر موحّد الأمر الذي يخلُق كثيراً من التشابك والتعقيد بين الفريقين.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾البقرة ٤٠

ففي هذه الآية أراد الله أن يُذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم، ليقودهم إلى الشعور بمسؤوليتهم إزاءها، فيقفون منها موقف الشاكر للنعمة. في مجالها العملي بطاعة الله وأيضاً ليتعرفوا أن سلكوهم المتعنت مع النبي محمد (ص) ليس موقف الشاكر بل هو موقف الكافر للنعمة.

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ ﴾ : إنّ هذه الفقرة توحي بأنّ ثمة عهداً بين الله وبينهم، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأن ينسجموا مع الخط الذي يُريده للإنسان بتصديق رسله ونصرهم.

﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ : لقد تعهد الله لعباده بأن ييسر لهم سُبل الحياة، ويُسخر لهم ما فيها من نعم وطاقات ويُدخلهم جنات عدن التي وعد بها عباده المتّقين كل هذه الوعود كانت مقابل عهد عباده له في ميثاقه الذي أخذه عليهم، بأن ينسجموا مع خط الإيمان والعمل الصالح فليس لهم أن يطالبوه بشيء ما لم يقدّموا في مقابل ذلك وفاءً بالعهد والميثاق.

﴿ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾: فإذا كنتم تخافون وتنحرفون عن الخط خوفاً من الناس، ورهبة من فقدانكم لامتيازاتكم في ما تحصلون عليه من مال وشهرة ونفوذ، فاعلموا أن أحداً لا يستطيع أن يضركم إلاّ بإذن الله فلتكُن الرهبة له في قضايا الدنيا والآخرة، لأنه هو مالك الدنيا والآخرة جميعاً ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥.

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾: آمنوا بما أنزلت على محمد (ص) في رسالته وفي قرآنه الذي يُصدِّق ما معكم من التوراة، لأنّ الأنبياء لا يأتون ليكذبوا من قبلهم، بل ليصدقوه وليكملوا ما نقص بفعل تقدّم الحياة وتطوّرها.

﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ ﴾: لأن الكُفر به لا ينسجم مع معرفتكم بصحة دعوته ورسالته، من خلال البراهين التي تملكونها في ما بين أيديكم من الدلائل والبراهين.

﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾: الشراء هنا بمعنى البيع كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ البقرة: ٢٠٧ وذلك بأن لا يتركوا الآيات الحقة في مقابل ما يحصلون من الآخرين من امتيازات مالية أو معنوية، فإن هذا الثمن الذي تأخذونه في مقابل محاربتكم

للإسلام لا يمثّل شيئاً أمام المكاسب الدنيوية والأخروية.

﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾: أي لا تخافوا غيري، لأنه لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً، بل اتقون في ما يفعلون وفي ما تتركون لأن الله تعالى هو القوّة الوحيدة التي تملك مصير الإنسان في دنياه وفي آخرته.

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

كان اليهود يتبّعون في مواجهة الإسلام أسلوبين:

الأول: ١ ـ أسلوب الخِداع والتمويه، وذلك بتلبيس الحق بالباطل، وإثارة الشبُهات والالتباسات في قضايا الإيمان والتشريع، حتى يجعلوا الحق ضُمناً على الناس، بحيث يقف الإنسان بين الحق والباطل فلا يقدر على التميّيز بينهما، وهذا ما يحاول الكثيرون إثارته وممارسته في حياتنا الآن.

الثاني: ٢ ـ أسلوب كتمان الحقيقة وإخفائها، فقد كانوا يملكون الكثير من المعلومات والأدلة التي تؤكد صدق الرسول في رسالته، ولكنهم كانوا يخفونها عن الناس لأنهم لا يريدون للإسلام أن يأخذ مكانه الطبيعي كقوة رسالية إلهية في الحياة حسداً وبغياً من عند أنفسهم.

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

فإن الركوع هو غاية الخضوع لله الذي يجب أن تعيشه الخليقة في كل مظهر من مظاهر وجودها الحي الفاعل، لتكون الحياة كلّها في خدمة الله وطوع إرادته، فينبغي للإنسان أن يكون مع الناس في ركوعهم لله، فلا يكون في جانب والذين يسيرون مع الله في جانب آخر.

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة ٤٤

إن هذه الآية تواجه اليهود بالواقع العملي المُنحرف الذي كانوا يعيشونه في

عصر الدعوة، فقد جعلوا من أنفسهم حُمّاة الكتاب والشريعة، ودُعاة الاستقامة على الحق، وقادة الناس إلى الخير وذلك من خلال الدور الذي فرضوه لأنفسهم، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا خائنين لهذا الدور في مُمارستهم العملية، فكانوا بمنزلة الذين ينسون أنفسهم في حساب المسؤولية.

﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ إنها ليست مُجرد جملة اعتراضية يُراد بها تصوير حالتهم أمام الارتباط بالكتاب، بل هي لفتة نقدية للواقع في معرض الإيحاء لهم بالاستغراق في ما يتلونه من آيات الله من أجل وعي أعمق وسلوك أفضل.

ونلاحظ في كلمة ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن الآية تريد أن تثير في أنفسهم الشعور بأن المشكلة لديهم لست مشكلة علم، ليصار إلى توجيههم نحو الأخذ بأسباب العلم، بل هي مشكلة تجميد للعقل في المسائل التي تدخل في حساب التمييز العملي بين الحسن والقبيح.

والخلاصة: أن الآية ليست في معرض عدم جواز الجمع بين سلبيات العمل وإيجابيات الدعوة، بل هي في مقام التوبيخ والإثارة ضدّ هذا الواقع من أجل تصحيح السلوك واستقامة المسيرة، ليجتمع للداعية وعين الدعوة وسلامة التطبيق، لئلا يتّخذ الآخرون من انحراف الداعية مُبرّراً للعذر في الانحراف، ووسيلة لمحاربة الدعوة.

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ البقرة ٤٥-٤٦

معاني المفردات:

١ ـ ﴿ بِٱلصَّبْرِ ﴾: قيل المراد بالصبر منع النفس عن مجالها وكفّها عن هواها.
٢ ـ ﴿ لَكَبِيرَةٌ ﴾: الكبيرة: تُستعمل في ما يشقّ ويصعُب.
٣ ـ ﴿ ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾: الخشوع والخضوع معناها التذلل والانكسار، إلاّ أن

الخضوع مختص بالجوارح والخشوع بالقلب و﴿ ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾، قال مجاهد: أراد بالخاشعين المؤمنين، فإنهم إذا عملوا ما يحصل لهم من الثواب بفعلها لم يثقُل عليهم ذلك، كما أن الإنسان يتجرّع مرارة الدواء لما يرجو به من نيل الشفاء وقال الحسن: أراد بالخاشعين الخائفين.

ـ يقول السيد فضل الله: قد يواجه الإنسان في حياته العملية ضغط الشهوة، التي تلحّ عليه في ما يُشبه الحريق الداخلي، كي يستسلم لنداء الغريزة، ويترُك نداء الله وقد يقع تحت ضغط الطمع، الذي يدعوه إلى أن يترك إيمانه ومبادئه للحصول على مال أو جاه. وقد يواجه الضغوط الخارجية التي تقتحم حياته لتهدد وجوده، فيستسلم لتأثيراتها المُنحرفة بعيداً عن خط الله فكيف يواجه ذلك كله؟

إن هاتين الآيتين تستثيران في الإنسان إيمانه بالله من خلال الوسائل العملية للإيمان ليثبت الإنسان على خط الحق في المُنحدر الخطر، ويتحدّث الله عن وسيلتين هما: الصبر والصلاة.

أمّا الصبر: فيُمثل الموقف القوي الذي يحكم الإنسان فيه نفسه انطلاقاً من إرادته وإيمانه، وهو من الأخلاق الإيجابية الإسلامية التي تبني للإنسان القاعدة النفسية القوية المتماسكة، التي تمنعه من الانهيار والانسحاق تحت وطأة نوازع الضعف البدنية والنفسية والخارجية فيقوده ذلك إلى الالتزام بكل متطلبات الإيمان ومسؤولياته.

أما الصلاة فهي معراج المؤمن إلى ربه، تعرج فيها روحه وضميره وقلبه وفكره.. فتلتقي بالله في لحظات ابتهال وانفتاح، وتتصل بالمعاني الكبيرة الممتدة في رحاب الله إنّ الإنسان إذا اتصل قلبه بالله انفتحت روحه على أخلاقه العظيمة التي أرادنا أن نتخلق بها في الحياة.

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾هل الصلاة عبء

ثقيل؟ لعل المراد في هذه الآية أنها ثقيلة على الناس الذين لا يعيشون روح الخشوع لله والخضوع لربوبيته، لأن صلاتهم تتحوّل إلى عبء ثقيل لا يدركون معناه ولا يرتفعون إلى آفاقه، بل يمارسونها كواجب جامد وضريبة مفروضة عليهم. أما الخاشعون الذين تخشع قلوبهم لذكر الله، وتتلذذ به، وترتاح إليه فإنهم يقبلون عليها بكل ما في قلوبهم من حب وطمأنينة وانفتاح... وذلك عندما يعيشون الإيمان باليوم الآخر في عمق الإحساس بالعقيدة وروعة الإيمان بقضية المصير، فيتمثّل ذلك في انضباطهم العملي، لأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾البقرة ٤٦ .

والحديث عن لقاء الله لا يراد منه اللقاء الحسي المادي، لأن الله لا يتجسّد كما تتجسّد المخلوقات بالأشكال المادية بل هو كناية عن يوم القيامة الذي يلتقي الناس فيه بالله في حسابه وثوابه أو عقابه، باعتبار أنه اليوم الذي لا مظهر فيه لسلطة أحد ولو بالشكل إلاّ لله. كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ الانفطار: ١٩ . فكأن الإنسان يلتقي بالله هناك من خلال تمثّل وجوده تعالى، من خلال الإحساس على نحو أقوى بقدرته المُطلقة.

*** الطبري:**

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾البقرة ٤٠

يعني بقوله جلّ ثناؤه: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن وكان يعقوب يدعى «إسرائيل»، بمعنى عبد الله وصفوته من خلقه. و«إيل» هو الله، و«إسرا»: هو العبد، كما قيل: «جبريل» بمعنى عبد الله.

وإنما خاطب الله جل ثناؤه بقوله: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾أحبار اليهود من بني إسرائيل، الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله (ص)، فنسبهم جلّ ذكره إلى يعقوب، كما نسب ذرية آدم إلى آدم، فقال:﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ

﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ الأعراف: ٣١ وما أشبه ذلك. وإنما خصهم بالخطاب في هذه الآية والتي بعدها من الآي التي ذكرهم فيها نعمه وإن كان قد تقدّم ما أنزل فيهم وفي غيرهم في أول هذه السورة ما قد تقدم أن الذي احتج به من الحجج والآيات التي فيها أنباء أسلافهم، وأخبار أوائلهم، وقصص الأمور التي هم بعلمها مخصوصون دون غيرهم من سائر الأمم، ليس عند غيرهم من العلم بصحته وحقيقته مثل الذي لهم من العلم به، إلاّ لمن اقتبس علم ذلك منهم. فعرفهم بإطلاع محمد على علمها مع بعد قومه وعشيرته من معرفتها، وقلة مزاولة محمد (ص) دراسة الكتب التي فيها أنباء ذلك أن محمداً (ص) لم يصل إلى علم ذلك إلاّ بوحي من الله وتنزيل منه ذلك إليه لأنهم من علم صحة ذلك بمحل ليس به من الأمم غيرهم، فلذلك جل ثناؤه خص بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ خطابهم.

* * *

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾

ونعمته التي أنعم بها على بني إسرائيل جلّ ذكره، اصطفاؤه منهم الرُسل، وإنزاله عليهم الكتب، واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضراء من فرعون وقومه، إلى التمكين لهم في الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعام المن والسلوى. فأمر جل ثناؤه أعقابهم أن يكون ما سلف منه إلى آبائهم على ذكر، وأن لا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم، فيحل بهم من النقم ما أحلّ بمن نسي نعمه عنده منهم وكفرها، وجحد صنائعه عنده.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾

قد تقدّم بياننا في ما مضى عن معنى العهد من كتابنا هذا، واختلاف المختلفين في تأويله، والصواب عندنا من القول فيه. وهو في هذا الموضع: عهد الله ووصيته التي أخذ على بني إسرائيل في التوراة، أن يبينوا للناس أمر

محمد (ص) أنه رسول، وأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة أنه نبي الله، وأن يؤمنوا به وبما جاء به من عند الله. ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ ﴾

وعهده إياهم أنهم إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ ﴾ المائدة: ١٢

الآية، وكما قال: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ الأعراف: ١٥٦-١٥٧. .

﴿ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ وتأويل قوله: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾، وإياي فاخشوا واتقوا أيها المضيعون عهدي من بني إسرائيل، والمكذبون رسولي الذي أخذت ميثاقكم فيما أنزلت من الكتب على أنبيائي أن تؤمنوا به وتتبعوه أن أحل بكم من عقوبتي، إن لم تنيبوا وتتوبوا إلي باتباعه والإقرار بما أنزلت إليه، ما أحلّلت بمن خالف أمري وكذّب رُسلي من أسلافكم.

﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ البقرة ٤١

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ وَءَامِنُوا۟ ﴾، صدقوا، كما قد قدمنا البيان عنه قبل. ويعني بقوله: ﴿ بِمَآ أَنزَلْتُ ﴾، ما أنزل على محمد (ص) من القرآن. ويعني بقوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾، أن القرآن مصدّق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة. فأمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم جل ثناؤه أن في تصديقهم بالقرآن تصديقاً منهم للتوراة، لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد (ص) وتصديقه واتباعه، نظير الذي من ذلك في التوراة والإنجيل ففي تصديقهم بماأنزل على محمد تصديق منهم لما معهم من التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة. وقوله: ﴿ مُصَدِّقًا ﴾، قطع من الهاء المتروكة في ﴿أَنْزَلْتُهُ﴾ من ذكر «ما». ومعنى الكلام ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ أيها اليهود، والذي معهم: هو التوراة والإنجيل.

﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ ﴾ وأما تأويل ذلك فإنه يعني به: يا معشر أحبار أهل الكتاب، صدقوا بما أنزلت على رسولي محمد (ص) من القرآن المصدق كتابكم، والذي عندكم من التوراة والإنجيل، المعهود إليكم فيهما أنه رسولي ونبيي المبعوث بالحق، ولا تكونوا أول أمتكم كذّب به وجحد أنه من عندي، وعندكم من العلم به ما ليس عند غيركم. وكفرهم به: جحودهم أنه من عند الله. والهاء التي في «به» من ذكر«ما» التي مع قوله: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ ﴾. كما: قال ابن جريج في قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ ﴾، بالقرآن.

﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل قوله تعالى «ولا تشتروا بآياتي»

حدثني المثنى بن إبراهيم قال: حدّثنا آدم، قال: حدّثنا أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾، يقول: لا تأخذوا عليه أجراً. قال: هو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم، علم مجاناً كما علمت مجاناً.

وقال آخرون بما:

حدثني به موسى بن هارون، قال: حدثنا عمروبن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾، يقول: لا تأخذوا طمعاً قليلاً وتكتموا اسم الله، وذلك الطمع هو الثمن.

فتأويل الآية إذاً: لا تبيعوا ما آتيتكم من العلم بكتابي وآياته بثمن خسيس وعرض من الدنيا قليل. وبيعهم إياه تركهم إبانة ما في كتابهم من أمر محمد (ص) للناس، وأنه مكتوب فيه أنه النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل بثمن قليل، وهو رضاهم بالرياسة على أتباعهم من أهل ملتهم ودينهم، وأخذهم الأجر ممن بينوا له ذلك على ما بينوا له منه.

﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾

يقول: فاتقون في بيعكم آياتي بالخسيس من الثمن، وشرائكم بها القليل

من العرض، وكفركم بما أنزلت على رسولي وجحودكم نبوة نبيي أن أحلّ بكم ما أحللت بأسلافكم الذين سلكوا سبيلكم من المثلات والنقمات.

* * *

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾البقرة:٤١

يعني بقوله: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ﴾، لا تخلطوا. واللبس هو الخلط. يقال منه: لبست عليه هذا الأمر ألبسه لبسا: إذا خلطته عليهم.

﴿ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

وفي قوله: ﴿ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾، وجهان من التأويل: أحدهما: أن يكون الله جل ثناؤه نهاهم عن أن يكتموا الحق، كما نهاهم أن يلبسوا الحق بالباطل. فيكون تأويل ذلك حينئذ: ولا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق. ويكون قوله: ﴿ وَتَكْتُمُواْ ﴾ عند ذلك مجزوما بما جزم به «تلبسوا»، عطفاً عليه. والوجه الآخر منهما: أن يكون النهي من الله جل ثناؤه لهم عن أن يلبسوا الحق بالباطل، ويكون قوله: ﴿ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ خبراً منه عنهم بكتمانهم الحق الذي يعلمونه، فيكون قوله: «وتكتموا» حينئذ منصوباً لانصرافه عن معنى قوله: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾، إذ كان قوله: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ﴾ نهياً، وقوله:﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ خبراً معطوفاً عليه، غير جائز أن يعاد عليه ما عمل في قوله: ﴿تَلْبِسُوا﴾ من الحرف الجازم. وذلك هو المعنى الذي يسميه النحويون صرفاً.

أما تأويل الحقّ الذي كتموه وهم يعلمونه فهو ما

حدثنا ابن عباس: ﴿ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾، يقول: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وما جاء به، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بين أيديكم.

فتأويل الآية إذا: ولا تخلطوا على الناس أيها الأحبار من أهل الكتاب في أمر محمد (ص) وما جاء به من عند ربه، وتزعموا أنه مبعوث إلى بعض أجناس

الأمم دون بعض، أوتنافقوا في أمره، وقد علمتم أنه مبعوث إلى جميعكم وجميع الأمم غيركم، فتخلطوا بذلك الصدق بالكذب، وتكتموا به ما تجدونه في كتابكم من نعته وصفته، وأنه رسولي إلى الناس كافة، وأنتم تعلمون أنه رسولي، وأن ما جاء به إليكم فمن عندي، وتعرفون أن من عهدي الذي أخذت عليكم في كتابكم الإيمان به وبما جاء به والتصديق به.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ البقرة ٤٣

ذُكر أن أحبار اليهود والمنافقين كانوا يأمرون الناس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولا يفعلونه، فأمرهم الله بإقام الصلاة مع المسلمين المصدقين بمحمد وبما جاء به، وإيتاء زكاة أموالهم معهم، وأن يخضعوا لله ولرسوله كما خضعوا.

وهذا أمر من الله جل ثناؤه لمن ذكر من أحبار بني إسرائيل ومنافقيها بالإنابة والتوبة إليه، وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والدخول مع المسلمين في الإسلام، والخضوع له بالطاعة؛ ونهي منه لهم عن كتمان ما قد علموه من نبوة محمد (ص)، بعد تظاهر حججه عليهم، بما قد وصفنا قبل فيما مضى من كتابنا هذا، وبعد الإعذار إليهم والإنذار، وبعد تذكيرهم نعمه إليهم وإلى أسلافهم تعطفا منه بذلك عليهم، وإبلاغا في المعذرة.

﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ البقرة ٤٤

اختلف أهل التأويل في معنى البرّ الذي كان المخاطبون بهذه الآية يأمرون الناس به وينسون أنفسهم، بعد إجماع جميعهم على أن كل طاعة لله فهي تسمى»براً». فروي عن ابن عباس قوله: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أي تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوّة والعهدة من التوراة، وتتركون أنفسكم: أي وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون

من كتابي.

وجميع الذي قال في تأويل هذه الآية من ذكرنا قوله متقارب المعنى; لأنهم وإن اختلفوا في صفة «البرّ» الذي كان القوم يأمرون به غيرهم، الذين وصفهم الله بما وصفهم به، فهم متفقون في أنهم كانوا يأمرون الناس بما لله فيه رضا من القول أوالعمل، ويخالفون ما أمروهم به من ذلك إلى غيره بأفعالهم.

فالتأويل الذي يدل على صحته ظاهر التلاوة إذا: أتأمرون الناس بطاعة الله وتتركون أنفسكم تعصيه؟ فهلا تأمرونها بما تأمرون به الناس من طاعة ربكم؟ معيرهم بذلك، ومقبحاً إليهم ما أتوا به.

ومعنى»نسيانهم أنفسهم» في هذا الموضع نظير النسيان الذي قال جل ثناؤه:﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ ﴾التوبة:٦٧ بمعنى: تركوا طاعة الله فتركهم الله من ثوابه.

* * *

﴿ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾

يعني بقوله: ﴿ تَتۡلُونَ ﴾: تدرسون وتقرأون.

﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾يعني بقوله:﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أفلا تفقهون وتفهمون قبح ما تأتون من معصيتكم ربكم التي تأمرون الناس بخلافها وتنهو نهم عن ركوبها وأنتم راكبوها، وأنتم تعلمون أن الذي عليكم من حق الله وطاعته، واتباع محمد والإيمان به وبما جاء به، مثل الذي على من تأمرونه باتباعه.

﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾البقرة ٤٥

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾: استعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهدتموني في كتابكم من طاعتي واتباع أمري، وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا إلى ما تكرهونه من التسليم لأمري، واتباع رسولي محمد (ص) بالصبر عليه والصلاة.

وقد قيل: إن معنى الصبر في هذا الموضع: الصوم، والصوم بعض معاني الصبر. وتأويل من تأوّل ذلك عندنا أن الله تعالى ذكره أمرهم بالصبر على ما كرهته نفوسهم من طاعة الله، وترك معاصيه. وأصل الصبر: منع النفس محابها، وكفّها عن هو اها، ولذلك قيل للصابر على المصيبة: صابر، لكفه نفسه عن الجزع، وقيل لشهر رمضان: شهر الصبر، لصبر صائميه عن المطاعم والمشارب نهاراً، وصبره إياهم عن ذلك: حبسه لهم، وكفه إياهم عنه، كما تصبر الرجل المسيء للقتل فتحبسه عليه حتى تقتله. ولذلك قيل: قتل فلان فلاناً صبراً، يعني به: حبسه عليه حتى قتله، فالمقتول مصبور، والقاتل صابر. وأما الصلاة فقد ذكرنا معناها فيما مضى.

فإن قال لنا قائل: قد علمنا معنى الأمر بالاستعانة بالصبر على الوفاء بالعهد والمحافظة على الطاعة، فما معنى الأمر بالاستعانة بالصلاة على طاعة الله، وترك معاصيه، والتعري عن الرياسة، وترك الدنيا؟ قيل: إن الصلاة فيها تلاوة كتاب الله، الداعية آياته إلى رفض الدنيا وهجر نعيمها، المسلية النفوس عن زينتها وغرورها، المذكرة الآخرة وما أعد الله فيها لأهلها. ففي الاعتبار بها المعونة لأهل طاعة الله على الجد فيها، كما روي عن نبينا (ص) أنه كان إذا حزّ به أمر فزع إلى الصلاة.

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ البقرة ٤٥

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ وَإِنَّهَا ﴾، وإن الصلاة، فـالهاء والألف في «وإنها» عائدتان على «الصلاة». وقد قال بعضهم: إن قوله: ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ بمعنى: إن إجابة محمد (ص)، ولم يجر لذلك بلفظ الإجابة ذكر فتجعل «الهاء والألف» كناية عنه، وغير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام إلى باطن لا دلالة على صحته. ويعني بقوله: ﴿ لَكَبِيرَةٌ ﴾: لشديدة ثقيلة.

فمعنى الآية: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم

على طاعة الله، وكفها عن معاصي الله، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من مراضي الله، العظيمة إقامتها إلاّ على المتواضعين لله، المستكينين لطاعته، المتذللين من مخافته.

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ البقرة ٤٦

إن قال لنا قائل: وكيف أخبر الله جل ثناؤه عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة، أنه»يظن» أنه ملاقيه، والظن: شك، والشاك في لقاء الله عندك بالله كافر؟ قيل له: إن العرب قد تسمي اليقين ظناً، والشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سُدفة، والضياء سُدفة، والمغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تسمي بها الشيء وضده. وممّا يدل على أنه يسمى به اليقين، قول دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرد

يعني بذلك: تيقنوا ألفي مدجج تأتيكم. وقول عميرة بن طارق:

بأن تغتزوا قومي وأقعد فيكم وأجعل مني الظن غيبا مرجما

يعني: وأجعل مني اليقين غيباً مرجماً. والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن «الظن» في معنى اليقين أكثر من أن تحصى، وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية.

ومنه قول الله جل ثناؤه: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ الكهف: ٥٣ وبمثل الذي قلنا في ذلك جاء تفسير المفسرين.

فتأويل الآية إذا: واستعينوا على الوفاء بعهدي بالصبر عليه والصلاة، وإن الصلاة لكبيرة إلاّ على الخائفين عقابي، المتواضعين لأمري، الموقنين بلقائي والرجوع إلي بعد مماتهم.

وإنّما أخبر الله جل ثناؤه أن الصلاة كبيرة إلا على من هذه صفته، لأن من كان غير موقن بمعاد ولا مصدّق بمرجع ولا ثواب ولا عقاب، فالصلاة عنده

عناء وضلال، لأنه لا يرجو بإقامتها إدراك نفع ولا دفع ضرّ، وحقّ لمن كانت هذه الصفة صفته أن تكون الصلاة عليه كبيرة، وإقامتها عليه ثقيلة، وله فادحة.

وإنما خفت على المؤمنين المصدقين بلقاء الله، الراجين عليها جزيل ثوابه، الخائفين بتضييعها أليم عقابه، لما يرجون بإقامتها في معادهم من الوصول إلى ما وعد الله عليها أهلها، ولما يحذرون بتضييعها ما أوعد مضيعها. فأمر الله جل ثناؤه أحبار بني إسرائيل الذين خاطبهم بهذه الآيات، أن يكونوا من مقيميها الراجين ثوابها إذا كانوا أهل يقين بأنهم إلى الله راجعون، وإياه في القيامة ملاقون.

*** الطبرسي:**

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾البقرة ٤٠

المعنى: لما عمّ الله تعالى جميع الخلق بالحجج الواضحة على توحيده، وذكرهم ما أنعم به عليهم في أبيهم آدم (ع)، خص بني إسرائيل بالحجج، وذكرهم ما أسدى إليهم وإلى آبائهم من النعم، فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾يعني يا بني يعقوب، نسبهم إلى الأب الأعلى، كما قال: يا بني آدم! والخطاب لليهود والنصارى. وقيل: هو خطاب لليهود الذين كانوا بالمدينة وما حولها، عن ابن عباس. ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾: أراد بذلك النعم التي أنعم بها على أسلافهم من كثرة الأنبياء فيهم، والكتب، وإنجائهم من فرعون ومن الغرق، على أعجب الوجوه، وإنزال المن والسلوى عليهم، وكون الملك فيهم في زمن سليمان (ع)، وغير ذلك.

وعدّ النعمة على آبائهم نعمة عليهم، لأن الأولاد يتشرفون بفضيلة الآباء، وهذا كما يقال في المفاخرة: قتلناكم يوم الفجار، وهزمناكم يوم ذي قار، وغلبناكم يوم النسار. وذكر النعمة بلفظ الواحد، والمراد بها الجنس، كقوله

تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ إبراهيم: ٣٤ والواحد لا يمكن عده. وقيل: المراد بها النعم الواصلة إليهم مما اختصوا به دون آبائهم، واشتركوا فيه مع آبائهم، فكان نعمة على الجميع، فمن ذلك تبقية آبائهم حتى تناسلوا، فصاروا من أولادهم، ومن ذلك خلقه إياهم على وجه يمكنهم معه الاستدلال على توحيده، والوصول إلى معرفته، فيشكروا نعمه، ويستحقوا ثوابه. ومن ذلك ما يوصل إليهم حالاً بعد حال من الرزق، ويدفع عنهم من المكاره والأسواء، وما يسبغ عليهم من نعم الدين والدنيا.

فعلى القول الأول: تكون الآية تذكيراً بالنعم عليهم في أسلافهم، وعلى القول الثاني تكون تذكيراً بالمنعم عليهم، ومن النعم على أسلافهم ما ذكره في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المائدة: ٢٠ وقال ابن الأنباري: أراد اذكروا ما أنعمت به عليكم فيما استودعكتم من علم التوراة، وبينت لكم من صفة محمد (ص)، وألزمتكم من تصديقه واتباعه، فلما بعث ولم يتبعوه كانوا كالناسين لهذه النعمة.

وقوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قيل فيه وجوه أحدها: إنَّ هذا العهد هو أن الله تعالى عهد إليهم في التوراة أنه باعث نبياً يقال له محمد، فمن تبعه كان له أجران اثنان: أجر باتباعه موسى وإيمانه بالتوراة، وأجر باتباعه محمداً وإيمانه بالقرآن. ومن كفر به تكاملت أوزاره. وكانت النار جزاءه. فقال: أوفوا بعهدكم في محمد، أوف بعدكم أدخلكم الجنة، عن ابن عباس، فسمى ذلك عهداً، لأنه تقدم به إليهم في الكتاب السابق. وقيل: إنما جعله عهداً لتأكيده بمنزلة العهد الذي هو اليمين، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ آل عمران: ١٨٧ . وثانيها: إنه العهد الذي عاهدهم عليه، حيث قال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد، واذكروا ما فيه أي: ما في الكتاب عن الحسن. وثالثها: إنه ما عهد إليهم في سورة المائدة، حيث قال

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾المائدة: ١٢

وقال الله: ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي ﴾المائدة: ١٢ الآية. عن قتادة.

ورابعها: إنه أراد جميع الأوامر والنواهي. وخامسها: إنه جعل تعريفه إياهم نعمه عهداً عليهم، وميثاقاً، لأنه يلزمهم القيام بما يأزمرهم به من شكر هذه النعم، كما يلزمهم الوفاء بالعهد والميثاق الذي يؤخذ عليهم. والأول أقوى، لأن عليه أكثر المفسرين، وبه يشهد القرآن. وقوله: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ أي: خافوني في نقض العهد. وفي هذه الآية دلالة على وجوب شكر النعمة. وفي الحديث: ((التحدث بالنعم شكر)). وفيها دلالة على عظم المعصية في جحود النعم وكفرانها، ولحوق الوعيد الشديد بكتمانها، ويدل أيضاً على ثبوت أفعال العباد، إذ لو لم تكن لهم أفعال لما صح العهد، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، ولأدّى إلى بطلان الرسل والكتب.

﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾البقرة ٤١

المعنى: ثم قال مخاطباً لليهود ﴿ وَءَامِنُوا۟ ﴾ أي: صدقوا ﴿ بِمَآ أَنزَلْتُ ﴾ على محمد (ص) من القرآن، لأنه منزل من السماء إلى الأرض ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ من التوراة. أمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم أن في تصديقهم بالقرآن تصديقاً منهم للتوراة، لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بالنبوة لمحمد (ص)، وتصديقه نظير الذي في التوراة والإنجيل، فإن فيهما البشارة بمحمد، وبيان صفته. فالقرآن مصدق لهما. وقيل: معناه أنه يصدق بالتوراة، لأن فيه الدلالة على أنه حق، وأنه من عند الله. والأول أوجه لأنه يكون حجة عليهم، بأن جاء القرآن بالصفة التي تقدمت بها بشارة موسى وعيسى (ع).

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾ أي: بالقرآن من أهل الكتاب، لأن قريشاً

قد كانت كفرت به بمكة قبل اليهود. وقيل: المعنى ولا تكونوا السابقين إلى الكفر به فيتبعكم الناس، أي: لا تكونوا أئمة في الكفر به، عن أبي العالية. وقيل: المعنى ولا تكونوا أول جاحدين صفة النبي في كتابكم، فعلى هذا تعود الهاء في ﴿بِهِ﴾ إلى النبي (ص)، عن ابن جريج، وقيل: المعنى ولا تكونوا أول كافر بما معكم من كتابكم، لأنكم إذا جحدتم ما فيه من صفة النبي (ص)، فقد كفرتم به.

قال الزجاج: وقواه بأن الخطاب وقع على علماء أهل الكتاب، فإذا كفروا كفر معهم الأتباع، فلذلك قيل لهم: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ قال: ولو كان الهاء في ﴿بِهِ﴾ للقرآن، فلا فائدة فيه، لأنهم كانوا يظهرون أنهم كافرون بالقرآن. وقال علي بن عيسى: يحتمل أن يكون أول كافر بالقرآن أنه حق في كتابكم، وإنما عظم أول الكفر لأنهم إذا كانوا أئمة لهم وقدوة في الضلالة، كانت ضلالتهم أعظم، نحو ما روي عن النبي (ص): ((من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)).

وليس في نهيه عن أن يكونوا أول كافر به، دلالة على أنه يجوز أن يكونوا آخر كافر، لأن المقصود النهي عن الكفر على كل حال. وخص أولاً بالذكر لما ذكرناه من عظم موقعه، كما قال الشاعر:

من أناس ليس في أخلاقهم ... عاجل الفحش، ولا سوء الجزع

وليس يريد أن فيهم فحشاً آجلاً. وقوله: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ روي عن ابي جعفر (ع)، في هذه الآية قال: كان حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وآخرون من اليهود، لهم مأكلة على اليهود في كل سنة، فكرهوا بطلانها بأمر النبي (ص)، فحرفوا لذلك آيات من التوراة، فيها صفته وذكره، فذلك الثمن الذي أريد في الآية. قال الفراء: إنما أدخل الباء في الآيات دون الثمن، وفي سورة يوسف أدخله في الثمن في قوله: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ يوسف: ٢٠

لأن العروض كلها أتت مخير فيها، إن شئت قلت: اشتريت الثوب بكساء، وإن شئت قلت: اشتريت بالثوب كساء، أيهما جعلت ثمناً لصاحبه جاز. فإذا جئت إلى الدراهم والدنانير وضعت الباء في الثمن كقوله ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾يوسف: ٢٠ لأن الدراهم ثمن أبداً، والمعنى: لا تستبدلوا بآياتي أي: بما في التوراة من بيان صفة محمد ونعته، ثمناً قليلاً أي: عرضاً يسيراً من الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ فاخشوني في أمر محمد (ص) لا ما يفوتكم من المآكل والرئاسة. وتقييده الثمن بالقلة لا يدل على أنه إذا كان كثيراً يجوز شراؤه به، لأن المقصود أن أي شيء باعوا به آيات الله كان قليلاً، وإنه لا يجوز أن يكون ثمن يساويه كقوله: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾المؤمنون: ١١٧ وإنما أراد بذلك نفي البرهان عنه على كل حال، وأنه لا يجوز أن يكون عليه برهان. ومثله قوله : ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾البقرة-٦١ وإنما أراد أن قتلهم لا يكون إلاَّ بغير حق. ونظائر ذلك كثيرة، ومنه قول امرئ القيس:

على لا حب لا يهتدى بمناره، إذا سافه العود الديافي جرجرا

وإنما أراد أنه لا منار هناك فيهتدي به. وفي هذه الآية دلالة على تحريم أخذ الرشى في الدين، لأنه لا يخلو إما أن يكون أمراً يجب إظهاره أو يحرم إظهاره. فالأخذ على مخالفة كلا الوجهين حرام. وهذا الخطاب يتوجه أيضاً على علماء السوء من هذه الأمة، إذ اختاروا الدنيا على الدين فتدخل فيه الشهادات والقضايا والفتاوى، وغير ذلك.

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾البقرة:٤٢

المعنى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ﴾ أي: لا تخلطوا ﴿ الحَقَّ ب﴿ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ ومعنى لبسهم الحق بالباطل أنهم آمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعض، لأنهم جحدوا صفة النبي (ص)، فذلك الباطل، وأقرّوا بغيره مما في الكتاب. وقيل معناه: لا تحرّفوا الكلم عن مواضعه، فالتحريف هو الباطل، وتركهم ما في الكتاب على ما هو به هو الحق. وقال ابن عباس: لا تخلطوا الصدق بالكذب.

وقيل: الحق: التوراة التي أنزلها الله على موسى، والباطل: ما كتبوه بأيديهم. وقيل: الحق إقرارهم أن محمداً مبعوث إلى غيرهم، والباطل: ما كتبوه بأيديهم. وقيل: الحق إقرارهم أن محمداً مبعوث إلى غيرهم، والباطل: إنكارهم أن يكون بعث إليهم. وقوله ﴿ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: لا تكتموا صفة النبي (ص) في التوراة، وأنتم تعلمون أنه حق. والخطاب متوجه إلى رؤساء أهل الكتاب، كما وصفهم بأنهم يحرّفون الكلم عن مواضعه للتلبيس على أتباعهم. وهذا تقبيح لما يفعلونه أي: يجحدون ما يعلمون، وجحد العالم أعظم من جحد الجاهل. وقيل: معناه وأنتم تعلمون البعث والجزاء. وقيل: معناه وأنتم تعلمون ما أنزل ببني إسرائيل، وما سينزل بمن كذب على الله تعالى. وقيل: معناه وأنتم تعلمون ما نزل ببني إسرائيل من المسخ وغيره.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون هؤلاء عارفين بنبوة محمد، وذلك مبني على معرفة الله، وعندكم من عرف الله لا يجوز أن يكفر، وهؤلاء صاروا كفاراً، وماتوا على كفرهم؟ قلنا: لا يمتنع أن يكونوا عرفوا الله على وجه لا يستحقون به الثواب، لأن الثواب إنما يستحق بأن ينظروا من الوجه الذي يستحق به الثواب، فإذا نظروا على غير ذلك الوجه، لا يستحقون الثواب. فعلى هذا يجوز أن يكونوا عارفين بالله، والتوراة، وبصفات النبي (ص)، وإن لم يستحقوا الثواب، فلا يمتنع أن يكفروا.

وقال بعض أصحابنا: استحقاقهم الثواب على إيمانهم مشروط بالموافاة، فإذا لم يوافوا بالإيمان، لم يستحقوا الثواب. فعلى هذا يجوز أن يكونوا عارفين، وإِنْ لم يكونوا مستحقين لثواب يبطل بالكفر، والمعتمد الأول.

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ البقرة ٤٣

المعنى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: أدّوها بأركانها وحدودها وشرائطها، كما بينها النبي (ص) ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي: أعطوا ما فرض الله عليكم في أموالكم

على ما بينه الرسول لكم. وهذا حكم جميع ما ورد في القرآن مجملاً، فإن بيانه يكون موكولاً إلى النبي (ص) كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾الحشر: ٧ فلذلك أمرهم بالصلاة والزكاة على طريق الإجمال. وأحال في التفصيل على بيانه. وقوله: ﴿ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ إنما خص الركوع بالذكر، وهو من أفعال الصلاة بعد قوله: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ لأحد وجوه. أحدها: إن الخطاب لليهود، ولم يكن في صلاتهم ركوع، وكان الأحسن ذكر المختص دون المشترك، لأنه أبعد من اللبس. وثانيها: إنه عبر بالركوع عن الصلاة. يقول القائل: فرغت من ركوعي أي: صلاتي. وإنما قيل ذلك لأن الركوع أول ما يشاهد من الأفعال التي يستدل بها على أن الإنسان يصلي، فكأنه كرر ذكر الصلاة تأكيداً، عن أبي مسلم. ويمكن أن يكون فيه فائدة تزيد على التأكيد، وهو أن قوله: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ إنما يفيد وجوب إقامتها ويحتمل أن يكون إشارة إلى صلاتهم التي يعرفونها، وأن يكون الصلاة إشارة إلى الصلاة الشرعية. وقوله: ﴿ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ يكون معناه: صلوا مع هؤلاء المسلمين الراكعين، فيكون متخصصاً بالصلاة المتقررة في الشرع، فلا يكون تكراراً بل يكون بياناً. وثالثها: إنه حثّ على صلاة الجماعة، لتقدم ذكر الصلاة في أول الآية.

﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: لا تكتموا صفة النبي (ص) في التوراة، وأنتم تعلمون أنه حق. والخطاب متوجه إلى رؤساء أهل الكتاب، كما وصفهم بأنهم يحرّفون الكلم عن مواضعه للتلبيس على أتباعهم. وهذا تقبيح لما يفعلونه أي: يجحدون ما يعلمون، وجحد العالم أعظم من جحد الجاهل. وقيل: معناه وأنتم تعلمون البعث والجزاء. وقيل: معناه وأنتم تعلمون ما أنزل ببني إسرائيل، وما سينزل بمن كذب على الله تعالى. وقيل: معناه وأنتم تعلمون ما نزل ببني إسرائيل من المسخ وغيره.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون هؤلاء عارفين بنبوة محمد، وذلك مبني على معرفة الله، وعندكم أن من عرف الله لا يجوز أن يكفر، وهؤلاء صاروا كفاراً،

وماتوا على كفرهم؟ قلنا: لا يمتنع أن يكونوا عرفوا الله على وجه لا يستحقون به الثواب، لأن الثواب إنما يستحق بأن ينظروا من الوجه الذي يستحق به الثواب، فإذا نظروا على غير ذلك الوجه، لا يستحقون الثواب. فعلى هذا يجوز أن يكونوا عارفين بالله.

﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ البقرة ٤٤

المعنى: هذه الآية خطاب لعلماء اليهود، وكانوا يقولون لأقربائهم من المسلمين: أثبتوا على ما أنتم عليه، ولا يؤمنون هم. والألف للاستفهام، ومعناه التوبيخ، والمراد بالبر الإيمان بمحمد (ص). وبخهم الله تعالى على ما كانوا يفعلون من أمر الناس بالإيمان بمحمد (ص)، وترك أنفسهم عن ذلك. قال أبو مسلم: كانوا يأمرون العرب بالإيمان بمحمد (ص) إذا بعث، فلما بعث كفروا به. وروي عن ابن عباس: إن المراد أنهم كانوا يأمرون أتباعهم بالتمسك بالتوراة، وتركوا هم التمسك به، لأن جحدهم النبي ص) وصفته، فيه ترك للتمسك به. وعن قتادة: كانوا يأمرون الناس بطاعة الله، وهم يخالفونه.

وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ص): ((مررت ليلة أسري بي على أناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال: هؤلاء خطباء من أهل الدنيا، ممن كانوا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم)). وقال بعضهم: أتأمرون الناس بالصدقة وتتركونها أنتم، وإذا أتتكم الضعفاء بالصدقة لتفرقوها على المساكين، خُنتم فيها.

وقوله: ﴿ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ ﴾: معناه وأنتم تقرأون التوراة، وفيها صفته ونعته، عن ابن عباس. وقوله: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أفلا تفقهون أن ما تفعلونه قبيح في العقول. وعن أبي مسلم: إن معناه هذا ليس بفعل من يعقل. وقيل: معناه أفلا تعلمون أن الله يعذبكم ويعاقبكم على ذلك. وقيل: أفلا تعلمون أن ما في التوراة حق فتصدقوا محمداً وتتبعوه. فإن قيل: إن كان فعل البر واجباً،

والأمر به واجباً، فلماذا وبّخهم الله تعالى على الأمر بالبر؟ قلنا: لم يوبّخهم الله على الأمر بالبر، وإنما وبخهم على ترك فعل البر المضموم إلى الأمر بالبر، لأن ترك البر ممن يأمر به، أقبح من تركه ممن لا يأمر به، فهو كقول الشاعر:

لا تَنْهَ عَنْ خُلُق، وتَأْتيَ مِثْلَهُ، عارٌ عليْكَ إذا فعَلْتَ عظيمُ

ومعلوم أنه لم يرد به النهي عن الخلق، وإنما أراد النهي عن إتيان مثله.

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ البقرة ٤٥

المعنى: من قال إنه خطاب لليهود قال: إنَّ حب الرياسة كان يمنع علماء اليهود عن اتباع النبي (ص)، لأنهم خافوا زوال الرياسة، إذا اتبعوه، فأمرهم الله تعالى فقال: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ ﴾ على الوفاء بعهدي الذي عاهدتكم في كتابكم عليه، من طاعتي، واتباع أمري وترك ما نهيتكم عنه، والتسليم لأمري، واتباع رسولي محمد (ص) بالصبر على ما أنتم فيه من ضيق المعاش الذي تأخذون الأموال من عوامكم بسببه. وروي عن أئمتنا (ع)، أن المراد بالصبر: الصوم، فيكون فائدة الاستعانة به أنه يذهب بالشره وهوى النفس كما قال (ص): ((الصوم وجاء))، وفائدة الاستعانة بالصلاة أنه يتلى فيها ما يرغب فيها عند الله تعالى، ويزهد في الدنيا، وحب الرياسة، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ ﴾ العنكبوت: ٤٥ ، ولأنها تتضمن التواضع لله تعالى، فيدفع حب الرياسة. وكان النبي (ص) إذا حزنه أمر استعان بالصلاة والصوم.

ومن قال: إنه خطاب للمسلمين، قال: المراد به استعينوا على تنجز ما وعدته لمن اتبع النبي (ص)، أو على مشقة التكليف بالصبر أي: بحبس النفس على الطاعات، وحبسها عن المعاصي والشهوات، وبالصلاة لما فيها من تلاوة القرآن، والتدبر لمعانيه، والاتعاظ بمواعظه، والائتمار بأوامره، والانزجار عن نواهيه. ووجه آخر أنه ليس في أفعال القلوب أعظم من الصبر، ولا في أفعال الجوارح أعظم من الصلاة، فأمر بالاستعانة بهما.

وروي عن الصادق (ع)، أنه قال: «ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمّ من

غموم الدنيا، أن يتوضأ، ثم يدخل المسجد، فيركع ركعتين، يدعو الله فيها، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ قيل: في الضمير في ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ وجوه أحدها: إنها عائد إلى الصلاة، لأنها الأغلب والأفضل. وهو قول أكثر المفسرين. وعلى هذا ففي عود الضمير إلى واحد، وقد تقدم ذكر اثنين قولان: أحدهما: إن المراد به الصلاة دون غيرها، وخصها بالذكر لقربها منه، ولأنها الأهم والأفضل، ولتأكيد حالها وتفخيم شأنها وعموم فرضها. والآخر: إنَّ المراد الإثنان، وإن كان اللفظ واحداً، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣٤ ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ الجمعة: ١١ ﴿ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ التوبة: ٦٢

وثانيها: إنه عائد إلى الاستعانة يعني أن الاستعانة بهما لكبيرة. وقوله: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ ﴾ يدل على الاستعانة. ومثله قوله الشاعر:

إذا نُهيَ السّفيهُ جَرَى إلَيْه، وخالَفَ، والسَّفيهُ إلى خِلافِ

أي: جرى إلى السفه. ودل السفيه على السفه. وثالثها: إن الضمير عائد إلى محذوف وهو الإجابة للنبي (ص)، عن الأصم. أو مؤاخذة النفس بهما. أو تأدية ما تقدم، أو تأدية الصلاة، وضروب الصبر عن المعاصي، أو هذه الخطيئة، عن أبي مسلم. وهذه الوجوه الأخيرة كلها ضعيفة، لأنها لم يجر لها ذكر. وقوله: ﴿ لَكَبِيرَةٌ ﴾ أي: لثقيله، عن الحسن. والأصل فيه أن كل ما يكبر يثقل على الإنسان حمله، فيقال لك ما يصعب على النفس. وإن لم يكن من جهة الحمل يكبر عليها، تشبيهاً بذلك وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ البقرة: ٤٥ أي: على المتواضعين لله تعالى، قد وطّنوا أنفسهم على فعلها، وعوّدوها إياها، فلا يثقل عليهم. وأيضاً فإن المتواضع لا يبالي بزوال الرياسة، إذا حصل له الإيمان. وقال مجاهد: أراد الخاشعين المؤمنين، فإنهم إذا علموا ما يحصل لهم من الثواب بفعلها، لم يثقل ذلك، كما أن الإنسان يتجرّع مرارة الدواء، لما يرجو به من نيل الشفاء. وقال الحسن: أراد بالخاشعين الخائفين.

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ البقرة ٤٦

المعنى: لما تقدم ذكر الخاشعين، بيّن صفتهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ أي: يوقنون ﴿ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ﴾ ما وعدهم ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ عن الحسن ومجاهد وغيرهما، ونظيره قوله: ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ الحاقة: ٢٠ وقيل: إنه بمعنى الظن غير اليقين، والمعنى: إنهم يظنون أنهم ملاقو ربهم بذنوبهم، لشدة إشفاقهم من الإقامة على معصية الله. قال الرماني: وفيه بعد لكثرة الحذف وقيل: الذين يظنون انقضاء آجالهم، وسرعة موتهم، فيكونون أبداً على حذر ووجل، ولا يركنون إلى الدنيا، كما يقال لمن مات: لقي الله. ويدل على أن المراد بقوله: ﴿ مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ ملاقون جزاء ربهم قوله تعالى في صفة المنافقين: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ التوبة: ٧٧ . ولا خلاف في أن المنافق لا يجوز أن يرى ربه.

وكذلك قوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ الأنعام: ٣٠ . وجاء في الحديث: ((من حلف على مال امرئ مسلم كاذباً، لقي الله وهو عليه غضبان)). وليس اللقاء من الرؤية في شيء، يقال: لقاك الله محابك، ولا يراد به أن يرى أشخاصاً، وإنما يراد به لقاء ما يسره. وقوله: ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ يُسأل هنا فيقال: ما معنى الرجوع في الآية وهم ما كانوا قط في الآخرة، فيعودوا إليها؟ وجوابه من وجوه: أحدها: إنهم راجعون بالإعادة في الآخرة، عن أبي العالية وثانيها: إنهم يرجعون بالموت كما كانوا في الحال المتقدمة، لأنهم كانوا أمواتاً فأحيوا، ثم يموتون فيرجعون أمواتاً كما كانوا. وثالثها: إنهم يرجعون إلى موضع لا يملك أحد لهم ضراً، ولا نفعاً غيره تعالى، كما كانوا في بدء الخلق، لأنهم في أيام حياتهم قد يملك غيرهم الحكم عليهم، والتدبير لنفعهم وضرهم، يبين ذلك قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وتحقيق معنى الآية أنهم يُقرّون بالنشأة الثانية، فجعل رجوعهم بعد الموت إلى المحشر، رجوعاً إليه.

*** القرطبي:**

قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾البقرة ٤٠

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾: نداء مضاف علامة النصب فيه الياء، وحذفت منه النون للإضافة. الواحد ابن والأصل فيه بني والتصغير بُنَي وهو مشتق من البناء وهو وضع الشيء على الشيء، والابن فرع للأب وهو موضوع عليه وإسرائيل هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام. وإسرائيل اسم أعجمي ولذلك لم ينصرف، وهو في موضع خفض بالإضافة ومعنى إسرائيل: عبدالله. قال ابن عباس «إسرا» بالعبرانية هو عبد «وئيل» هو الله وقيل «إسرا» هو صفوة الله و«ئيل» هو الله.

﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ الذكر اسم مشترك، فالذكر بالقلب ضد النسيان والذكر باللسان ضد الإنصات. وذكرت الشيء بلساني وقلبي ذكراً والذَّكَر بفتح الذال خلاف الأنثى والذكر أيضاً الشرف والمعنى في الآية، اذكروا شكر نعمتي، فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة والنعمة هنا اسم جنس، فهي مفردة بمعنى الجمع، قال الله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم/٣٤] أي نعمه ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون، وجعل منهم أنبياء وأنزل عليهم الكتب والمن والسلوى، وفجّر لهم من الحجر الماء.

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ : أمر وجوابه واختلف في هذا العهد ما هو فقال الحسن عهده قوله ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة/٦٣] وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ [المائدة/١٢] وقال الزجاج وأوفوا بعهدي الذي عَهِدتُ إليكم في التوراة من إتّباع محمد (ص) أوف بعهدكم بما ضمنت لكم على ذلك إن أوفيتم به فلكم الجنة وقال بضعهم: وأوفوا بعهدي في العبادات أوفِ بعهدكم أي أوصلكم إلى منازل الرعايات.

﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾: أي خافون، والرّهب والرَّهب والرهبة: الخوف، ويتضمن الأمر به معنى التهديد وسقطت الياء بعد النون لأنها رأس آية.

و«إياي» منصوب بإضمار فعل وكذا الاختيار في الأمر والنهي والاستفهام والتقدير «وإياي ارهبوا» ويجوز في الكلام: وأنا فارهبون على الابتداء والخبر.

فائدة: ذكر البيهقي في دلائل النبوة عن الخليل بن أحمد: خمسة من الأنبياء ذوو اسمين، محمد وأحمد نبينا (ص)، وعيسى والمسيح، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل سلام الله عليهم أجمعين. ولكن ذكرنا أن لعيسى أربعة أسماء فقد سماه الله روحاً، وكلمة. وأما نبينا محمد (ص) فله أسماء كثيرة يأتي بيانها في مواضعها.

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾البقرة ٤١

قوله تعالى ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ ﴾ أي صدّقوا، يعني بالقرآن «مصدّقاً»: حال من الضمير في أنزلت التقدير: بما أنزلته مصدّقاً، والعامل فيه أنزلت ويجوز أن يكون حالاً من «ما»، والعامل فيه آمنوا؛ التقدير: آمنوا بالقرآن مصدقاً، ويجوز أن تكون مصدريّة؛ التقدير آمنوا بإنزال ﴿لما معكم﴾ يعني من التوراة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ ﴾ الضمير «به» قيل هو عائدٌ على محمد (ص) وقال ابن جريج هو عائد على القرآن إذ تضمنه قوله «بما أنزلت» وقيل على التوراة إذ تضمنها قوله ﴿لما معكم﴾ فإن قيل كيف قال كافر ولم يقل كافرين، قيل: التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر به وزعم الأخفش والفرّاء أنه محمول على معنى الفعل، لأن المعنى أول من كفر به. وكان قد كفر قبلهم كفار قريش، فإنما معناه من أهل الكتاب إذ هم منظور إليهم في مثل هذا.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا ﴾ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ ﴾ معطوف على قوله ﴿وَلاَ تَكُونُوا﴾ نهاهم عن أن يكونوا أول من كفر وأن لا يأخذوا على آيات الله ثمناً؛ أي على تغيير صفة محمد (ص) رشى وكان الأحبار يفعلون

ذلك فنهوا عنه وقيل كانت لهم مآكل يأكلونها على العلم كالراتب فنهوا عن ذلك وقيل إن الأحبار كانوا يعلّمون دينهم بالأجرة فنهوا عن ذلك وقيل المعنى: لا تشتروا بأوامري ونواهي، وإياي ثمناً قليلاً يعني الدنيا ومدتها العيش الذي هو نزرٌ لا خَطَرَ له فسُمّي ما اعتاضوه عن ذلك ثمناً قليلاً؛ لأنهم جعلوه عوِضاً وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول من فعل فعلهم فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما علّمه وقد تعيّن عليه فهو مثلهم. قال رسول الله (ص): «من تعلّم علماً مما يبتغي به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة (يعني ريحها)] قد أجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء، لقوله (ع) في حديث ابن عباس إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله (أخرجه البخاري) وهو نص يرفع الخلاف فينبغي أن يعوّل عليه.

قوله تعالى ﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾قد تقدم معنى التقوى وقُرأ فاتقوني وقد تقدم وقال سهل بن عبدالله قوله ﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ قال: موضع علمي السابق فيكم. وإياي فارهبون: قال موضع المكر والاستدراج.

﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

اللبس: الخلط، ليست عليه الأمر ألبسه، إذا مزجت بينه بمُشكلِه وحقّه بباطله.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴾الأنعام: ٩

وفي الأمر لُبسَةٌ، أي ليس بواضح ومنه قول علي رضي الله عنه للحارث بن حوط: يا حارث إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يعرف بالرجال، إعرف الحق تعرف حقه. روى سعيد عن قتادة في قوله «ولا تلبسوا الحق بالباطل» أي لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيره

ولا يجزي إلا به الإسلام ويحتمل أن يكون من اللباس وقد قيل هذا في معنى الآية؛ أي لا تغطوا ومنه لبس الثوب، يقال: لبست الثوب ألبسه.

قوله تعالى: ﴿ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾: الباطل في كلام العرب خلاف الحق، ومعناه الزائل، قال لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. وبطُل الشيء يبطل بطلاً وبطولاً وبطلاناً أي ذهب ضياعاً وخسرا ويقال ذهب دمه بُطْلاً؛ أي هدرا والباطل أي الشيطان. والبطل: الشجاع، يسمي بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه والمرأة بطلة، وبطل الأجير: بطّالة أي تعطل، فهو بطّال. واختلف أهل التأيول في المراد بقوله ﴿ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ فروي عن ابن عباس وغيره: لا تخلطوا ما عندكم من الحق في الكتاب بالباطل، وهو التغيير والتبديل وقال أبو العالية: قالت اليهودية: محمد مبعوث ولكن إلى غيرنا فإقرارهم ببعثه حق، وجحدهم أنه بعث إليهم باطل وقال ابن زيد: المراد بالحق التوراة، والباطل ما بدّلوا فيها من ذكر محمد (ع) وغيره وقال مجاهد: لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وقال قتادة. وقول ابن عباس أصوب. لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال. قوله تعالى ﴿ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾: يجوز أن يكون معطوفاً على تلبسوا فيكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار «أن» التقدير: لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه، أي وأن تكتموه. قال ابن عباس: يعني كتمانهم أمر النبي (ص) وهم يعرفونه وقال محمد بن سيرين: نزل عصابة من ولد هارون يثرب لما أصاب بني إسرائيل ما أصابهم من ظهور العدو عليهم والذلة، وتلك العصابة هم حملة التوراة يومئذ فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد (ص) بين ظهرانيهم، وهم مؤمنون مصدقون بنبوته فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنون وخلف الأبناء أبناء الأبناء فأدركوا محمداً (ص) فكفروا به وهم يعرفونه وهو معنى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾البقرة ٨٩ . قوله تعالى ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة في موضع الحال أي أن محمداً (ع) حق، فكفرهم كان كفر عناد؛ ولم يشهد تعالى لهم بعلم، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا ودلّ

هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل وإلى هذا أشار قوله تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾البقرة ٤٤ فعلى الإمام الفاضل والحبر العالم أن يبين الحق ويصدع به، ولا يلحقه في ذلك خوف ولا فزع. قال رسول الله (ص): (لا يمنعنّ أحدكم هيبة أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان) وفي التنزيل ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾المائدة: ٥٤ . قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾الأنبياء: ٨٠ واللبوس كل ما يلبس من ثياب ودرع ولابست فلاناً حتى عرفت باطنه وفي فلان فليس أي مستمتع فليس الكعبة والهودج: ما عليهما من لباس بكسر اللام.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾البقرة ٤٣

أقيموا الصلاة: أمر معناه الوجوب، ولا خلاف فيه، وقد تقدم القول في معنى إقامة الصلاة واشتقاقها وفي جملة من أحكامها. والحمد لله. قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾: أمر أيضاً يقتضي الوجوب والإيتاء: الإعطاء. آتيته: أعطيته، قال الله تعالى: ﴿ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾التوبة: ٧٥ .

والزكاة مأخوذة من زكاة الشيء إذ نما وزاد، يقال: زكى الزرع والمال يزكو، إذ كثر وزاد. ورجل زكي أي زائد الخير، وسمي الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذي يثاب به المزكي. ويقال: زرع زاك بين الزكّاء وزكى الفرد إذا صار زوجاً بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعاً ومنه الثناء الجميل وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير كما يقال زكا فلان أي طهر، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين. قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾التوبة: ١٠٣ واختلف في المراد بالزكاة هنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة، لمقارنتها بالصلاة وقيل: صدقة الفطر فعلى الأول وهو قول أكثر العلماء فالزكاة في الكتاب مجملة بيَّنها النبي (ص) فروى الأئمة عن أبي سعيد الخدري أن النبي (ص) قال: «ليس في حب ولا تمر

صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق ولا في ما دون خمس ذود صدقة ولا في ما دون خمس أواقٍ صدقة». وأما زكاة الفطر فليس لها في الكتاب نصّ عليها إلا ما تأوله مالك هنا. وقوله تعالى ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ الأعلى: ١٤ - ١٥ يفسّرونها بذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱرۡكَعُواْ ﴾، الركوع في اللغة، الانحناء بالشخص؛ وكل منحن راكع وقيل الانحناء يعمّ الركوع والسجود والركوع الشرعي هو أن يحني الرجل صلبه ويمد ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعاً يقول: سبحانه ربي العظيم ثلاثة، والركوع فرض قرآناً وسنة قوله تعالى: ﴿ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾: «مع» تقتضي المعية والجمعية ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن أن الأمر بالصلاة أولاً لم يقتضي شهود الجماعة فأمرهم بقوله مع شهود الجماعة، واختلف العلماء في شهود الجماعة على قولين: فالذي عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة، ويجب على من أدمن، الخلف عنها من غير عذر العقوبة. وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضاً على الكفاية قال ابن عبد البر: وهذا قول صحيح؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات فإذا قامت الجماعة في المسجد، فصلاة المنفرد في بيته جائزة، لقوله عليه السلام: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة» وروى مسلم عن عبدالله قال: «من سرَّه أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن فإن الله شرع لنبيكم (ص) سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صلّيتم في بيوتكم لتركتم سنة نبيكم (ص)، وما من رجل يتطهّر فيحسن الطهور ثم يخرج إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيئة، ولو تركتم سنة نبيكم (ص) لضللتم». وقال النبي (ص) «صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كثر فهو أحب إلى الله».

قوله تعالى: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا

﴿ تَعۡقِلُونَ ﴾ البقرة ٤٤.

﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ ﴾ هذا استفهام معناه التوبيخ، والمراد في قول أهل التأويل علماء اليهود قال ابن عباس: «كان يهود ال مدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذي قرابته أثبت على الذي أنت عليه وما يأمرك به محمداً (ص) فإن أمره حق: فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه وعن ابن عباس أيضاً: «كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم باتباع التوراة، وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة محمد (ص)». وقالت فرقة: «كان يحضون على الصدقة ويبخلون» والمعنى متقارب. وقال ابن جريج: «كان الأحبار يحضون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعاصي».

قوله تعالى: ﴿ بِٱلۡبِرِّ ﴾، ﴿ بِٱلۡبِرِّ ﴾ هنا الطاعة والعمل الصالح والبر، الصّدق، والبر: سَوق الغنم. والبرُّ بضم الباء معروف، وبفتحها الإجلال والتعظيم؛ ومنه ولدٌ بَرّ وبار؛ أي يعظّم والديه ويكرمهما. قوله تعالى: ﴿ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ ﴾: أي تتركون والنسيان بكسر النون يكون بمعنى الترك؛ وهو المراد هنا وفي قوله تعالى: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ ﴾ التوبة: ٦٧، وقوله: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ ﴾ الأعراف: ١٦٥ أي خلاف الذكر والحفظ. ومنه الحديث: (نسي آدم فنسيت ذريته). والنفس: الروح، وأنفس جمع نفس، جمع قلّة ومن الدليل على أن النفس، الروح، قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ﴾ الزمر: ٤٢ ، يريد الأرواح. وذلك بيّن في قول بلال للنبي: أخذ بنفسي يا رسول الله الذي أخذ بنفسك. والنفس أيضاً الدم. يقال سألت نفسه. والنفس أيضاً: الجسد.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾: توبيخ عظيم لمن فيهم و﴿ تَتۡلُونَ ﴾: تقرأون. الكتاب: التوراة. وكذا من فعل فعلهم كان مثلهم. وتلوت الرجل تلوّاً إذا خذلته. وتلوت القرآن تلاوة.

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أي أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعه هذه الحالة المردية لكم. والعقل: المنع؛ ومنه عقال البعير، لأنه يمنع عن الحركة.

ومنه العقل للديّة، لأنه يمنع ولي المقتول عن قتل الجاني. ومنه اعتقال البطن واللسان. والعقل نقيض الجهل. قال مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن: «سمعت سعيد بن جبير يقول، لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر، قال مالك: وصدَق، من ذاك الذي ليس فيه شيء». وقال الزجّاج: العاقل من عمل بما أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل. واتفق أهل الحقّ على أن العقل كائن موجود ليس بقديم ولا معدوم لأنه لو كان معدوماً لما اختص بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض؛ وإذا ثبت وجوده يستحيل القول بقِدمه إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى. قال الشيخ أبو الحسن الأشعري، وأبو إسحق الإسفراييني وغيرهما من المحقّقين: العقل هو العِلم، بدليل أنه لا يقال: عقلت وما علمت، أو علمت وما عقلت.

وقال القاضي أبو بكر: العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات وهو اختيار أبي المعالي في الإرشاد. واختار في البرهان أنه صفة يتأتى بها درك العلوم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ البقرة ٤٥

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾: الصبر: الحبس في اللغة. وقتل فلان صبراً أي أمسك وحبس حتى أعلَف وصبّرت نفسي على الشيء: حبستها. أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة في كتابه فقال: ﴿وَٱصْبِرُوا﴾ [الأعراف/١٢٨]. فيقال: فلان صابر عن المعاصي، وإذ صبر عن المعاصي فقد صبر على الطاعة. هذا أصح ما قيل. قال النحّاس: ولا يقال على من صبر على المصيبة صابر، إنما يقال صابر على كذا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الزمر: ١٠.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ خصّ الله الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها

وكان عليه السلام إذا حزَبه أمر فزع إلى الصلاة. فالصلاة على هذا التأويل هي الشرعية. وقال قوم: هي الدعاء على عرفها في اللغة؛ فتكون الآية على هذا التأويل مشبهاً لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا﴾الأنفال: ٤٥ لأن الثبات هو الصبر، والذكر هو الدعاء. وقول ثالث، قال مجاهد: الصبر في هذه الآية: الصوم؛ ومنه قيل لرمضان شهر الصبر فجاء الصوم والصلاة على هذا القول في الآية متناسياً في أن الصيام يمنع من الشهوات ويزهّد في الدنيا، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتخشع ويقرأ فيها القرآن الذي يذكر الآخرة. وقول رابع: الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها عن تطاولها، وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين. وقال الشعبي: قال علي (رضي الله عنه): الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. قال الطبري وصدق علي (رض)، وذلك أن الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمان بالإطلاق ثم إن الله سبحانه وتعالى وصف جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدّاً فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾الأنعام: ١٦٠. وجعل أجر الصابرين بغير حساب ومدح أهله فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾الزمر: ١٠ . وقد قيل إن المراد بالصابرين هنا أي الصائمون لقوله تعالى في صحيح السنّة عن النبي (ص): «الصيام لي وأنا أجزي به» فلم يذكر ثواباً مقدّراً كما لم يذكره في الصبر.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾: اختلف المتأولون في عرض الضمير من قوله ﴿وَإِنَّهَا﴾ فقيل على الصلاة وحدها خاصة؛ لأنها تكبر على النفوس ما لا يكبر الصوم. والصبر هنا: الصوم فالصلاة فيها سجن النفوس والصوم إنما فيه منع الشهوة فليس من منع شهوة واحدة كمن منع جميع الشهوات.

فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب، والمصلي يمتنع من جميع ذلك، فجوارحه كلها مقيدة بالصلاة عن جميع الشهوات وإذا كان ذلك كانت الصلاة أصعب على النفس ومكابدتها أشد فلذلك قال: وإنها لكبيرة.

وقيل عليهما.

وقيل إن الصبر لما كان داخلاً في الصلاة أعاد عليها كما قال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة/٦٢]. ولم يقل يرضوهما؛ لأن رضا الرسول داخل في رضا الله عز وجل.

﴿ عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾: الخاشعون جمع خاشع وهو المتواضع والخشوع هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع وقال قتادة: الخشوع في القلب، وهو الخوف وغض البصر في الصلاة. قال الزجّاج: الخاشع الذي يُرى أثر الخشوع والذل عليه.

وخشعت الأصوات أي سكنت وقال علي بن أبي طالب (رض): الخشوع في القلب، وأن تليّن كفيك للمرء المسلم وألا تلتفت في صلاتك فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقاً على نفاق.

قلت: الخشوع المحمود هو الخوف وسكون القلب فيوجب خشوع الظاهر ولا يملك صاحبه دفعه، فتراه مطرقاً متأدباً متذللاً وأما المذموم فتكلفه والتباكي ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهّال ليُروْ بعين البر والإجلال، وذلك خداع من الشيطان وتسويل من نفس الإنسان.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾البقرة ٤٦

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾: ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ في موضع خفض على النعت للخاشعين، ويجوز الرفع على القطع والظن هنا في قول الجمهور بمعنى اليقين ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾الحاقة: ٢٠. وقوله: ﴿ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا ﴾ الكهف: ٥٣. وقد قيل إن الظن في الآية يصح أن يكون على بابه ويضمر في الكلام بذنوبهم، فكأنهم يتوقعون لقاءه مذنبين.

ذكر المهدوي والماوردي. وزعم الفرّاء أن الظن قد يقع بمعنى الكذب، ولا يعرف ذلك البصريون. وأصل الظن وقاعدته الشك مع ميل إلى أخذ معتقديه،

وقد يوقع موقع اليقين؛ كما في هذه الآية وغيرها، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس؛ لا تقول العرب في رجل مرئي حاضر: أظن هذا إنساناً وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد؛ كهذه الآية ﴿ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف/٥٣]. وتقول: سئت به ظناً. وأسأت به الظن ومعنى ملاقوا ربهم: جزاء ربهم. وقيل جاء على المفاعلة وهو من واحد؛ مثل: عافاه الله. وأنهم بفتح الهمزة عطف على الأول، ويجوز ﴿ وَأَنَّهُمْ ﴾ بكسرها على القطع. ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى ربهم وقيل إلى جزائهم.

﴿ رَٰجِعُونَ ﴾: إقرار بالبعث والجزاء والعرض على الملك الأعلى.

*** الشيرازي:**

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾البقرة ٤٠

مرّت بنا في الآيات السابقة قصّة خلافة آدم في الأرض، وموقف الملائكة منه، ثم نسيانه العهد الإلهي وهبوطه إلى الأرض، وبعد ذلك توبته.

ومن أحداث قصّة آدم(ع)، اتضح أن الساحة الكونية تنطوي دوماً على قوتين: قوّة الحق وقوّة الباطل. وهاتان القوتان متقابلتان ومتصارعتان، ومن اتبع الشيطان في هذا الصراع فقد اختار طريق الباطل، ومصيره الابتعاد عن الجنّة والسّعادة، ومعاناة المصائب والآلام، ومن ثمّ الندم. ومن إلتزم بأوامر الله ونواهيه وتغلب على وساوس الشيطان وأتباعه، فقد سار على طريق الحق، وابتعد عن نكد العيش وضنكه وآلامه.

لما كانت قصّة بني إسرائيل ابتداءً من تحررهم من السيطرة الفرعونية واستخلافهم في الأرض، ومروراً بنسيان العهد الإلهي، وانتهاءً بسقوطهم في حضيض الإنحراف والعذاب والمشقة، تشبه إلى حد كبير قصة آدم، بل هي فرع من ذلك الأصل العام، فإن الله سبحانه في آية بحثنا وعشرات الآيات الأُخرى

التالية، بيّن مقاطع من حياة بني إسرائيل ومصيرهم، لإكمال الدرس التربوي الذي بدأ بقصة آدم.

يوجه القرآن خطابه إلى بني إسرائيل ويقول: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾البقرة ٤٠ .

الأوامر الثلاثة التي تذكرها الآية الكريمة وهي: تذكّر النعم الإلهية، والوفاء بالعهد، والخوف من الله، تشكل المنهج الإلهي الكامل للبشرية.

يحتل الحديث عن اليهود قسماً هاماً من سورة البقرة، التي هي أوّل سورة نزلت في المدينة كما صرح بذلك بعض العلماء؛ لأنّ اليهود كانوا أشهر مجموعة من أهل الكتاب في المدينة، وكانوا قبل ظهور النّبي(ص) ينتظرون رسولاً بشّرت به كتبهم الدينيّة، كما أنهم كانوا يتمتعون بمكانة إقتصادية مرموقة، ولذلك كله كان لليهود نفوذ عميق في المدينة.

ولمّا ظهر الإسلام، باعتباره الرّسالة التي تقف بوجه مصالحهم اللامشروعة وإنحرافاتهم وَغَطْرَسَتِهِمْ، فمضافاً إلى عدم إيمانهم به وقفوا بوجه الدعوة، وبدأوا يحوكون ضدها المؤامرات التي لا زالت مستمرة بعد أربعة عشر قرناً من البعثة النبوية المباركة.

ميثاق بني إسرائيل:

ميثاق بني إسرائيل الإلهي يتكون من اثني عشر بنداً، عشر منها ذكرت في آيتين متواليتين من هذه السّورة. ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾البقرة: ٨٣-٨٤.. وبندان ذكرا في الآية الكريمة: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ

وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ... ﴾المائدة: ١٢.

وهما: الإيمان بالأنبياء ومؤازرتهم.

كانَ بنو إسرائيل قد وُعدوا بالنعيم إن وفوا بعهودهم، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لكنهم نقضوا الميثاق، ولا يزالون حتى اليوم ينقضونه.

وفاء الله بعهده:

نعم الله تستتبعها دوماً قيود وشروط، وإلى جانب كل نعمة، مسؤولية وشرط.

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق(ع) في قوله الله عزَّ وجلَّ: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾قال: قال بولاية أمير المؤمنين (ع) ((أُوفِ بِعَهْدِكُمْ أُوفِ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ)).

ولا عجب إنْ ورد الإيمان بولاية علي(ع) في هذا الحديث، باعتباره جزءاً من العهد. لأن الإيمان بالأنبياء ومؤازرتهم، من بنود العهد مع بني إسرائيل، ويستتبع ذلك الإيمان بخلفاء الأنبياء باعتبارهم إمتداداً لمسألة القيادة والولاية وهذه المسألة ينبغي تحققها بشكل يتناسب مع زمانها. موسى (ع) في زمانه كان يتولى مسؤولية القيادة والولاية، والرّسول الخاتم (ص) هو الذي كان يتولى هذه المسؤولية في عصره، ثم تولاّها في زمن تال علي بن أبي طالب (ع).

جملة ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ تأكيد على كسر كل حواجز الخوف القائمة في طريق الوفاء بالعهد الإلهي، وعلى الخوف من الله وحده دون سواه، وهذا الحصر يتضح من تقديم ضمير النصب المنفصل ((إيّاي)) على جملة ((فَارْهَبُونِ)).

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي

ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ البقرة ٤٠-٤٣

سبب النّزول

ذكر بعض المفسرين العظام رواية عن الإمام محمّد بن علي الباقر(ع): في سبب نزول هذه الآية قال: ((كَانَ حَيُّ بن أَخْطَبَ وَكَعْبُ بْنُ أَشْرَفَ وَآخَرُونَ مِنَ الْيَهُود، لَهُمْ مَأْكَلَة عَلَى الْيَهُودِ في كُلِّ سَنَة، فَكَرِهُوا بُطْلانَهَا بِأَمْرِ النَّبيّ (ص)، فَحَرَّفُوا لِذَلِكَ آيَات مِنَ التَّوْرَاةِ فِيهَا صِفَتُهُ وَذِكْرُهُ فَذَلِكَ الثَّمَنُ الَّذي أُرِيدَ فِي الْآيَةِ)).

الآيات المذكورة تتطرق إلى تسعة من بنود العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل.

يقول تعالى: ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾، فالقرآن مصدق لما مع اليهود من كتاب، أي: أن البشائر التي زفتها التوراة والكتب السماوية الأُخرى بشأن النّبي الخاتم، والأوصاف التي ذكرتها لهذا النّبي والكتاب السماوي تنطبق على محمّد (ص)، وعلى القرآن المنزل عليه. فلماذا لا تؤمنون به؟!

ثمّ يقول سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ ﴾ أي ــ لا عجب أن يكون المشركون والوثنيون في مكة ــ كفّاراً بالرسالة، بل العجب في كفركم، بل في كونكم روّاداً للكفر، وسباقين للمعارضة. لأنكم أهل الكتاب، وكتابكم يحمل بشائر ظهور هذا النّبي، وكنتم لذلك تترقبون ظهوره. فما عدى ممّا بدا؟ ولماذا كنتم أول كافر به؟!.

إنه تعنتهم الذي لولاه لكانوا أول المؤمنين برسالة النّبي الخاتم (ص).

المقطع الثالث من الآية يقول: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾.

آيات الله، لا ينبغي ــ دون شك ــ معاوضتها، بأي ثمن، قليلاً كان أم كثيراً. وفي تعبير هذه الآية إشارة إلى دناءة هذه المجموعة من اليهود، التي تنسى

كل إلتزاماتها من أجل مصالحها التافهة. هذه الفئة، التي كانت قبل البعثة من المبشرين بظهور نبي الإسلام (ص)، وبكتابه السماوي، أنكرت بشارات التوراة وحرفتها، حين رأت مصالحها معرضة للخطر، وعلمت أن مكانتها الإجتماعية معرضة للإنهيار عند انكشاف الحقيقة للناس.

في الواقع، لو أُعطيت الدنيا بأجمعها لشخص ثمناً لإنكار آية واحدة من آيات اللّه، لكان ثمناً قليلاً، لأنّ هذه الحياة فانية، والحياة الأُخرى هي دار البقاء والخلود. فما بالك بإنسان يفرّط بهذه الآيات الإلهية في سبيل مصالحه التافهة؟!

في المقطع الرابع تقول الآية: ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾، والخطاب موجّه إلى زعماء اليهود الذين يخشون أن ينقطع رزقهم، وأن يثور المتعصبون اليهود ضدّهم، وتطلب منهم أن يخشوا الله وحده، أي: أن يخشوا عصيان أوامره سبحانه.

في البند الخامس من هذه الأوامر ينهى الله سبحانه عن خلط الحق بالباطل ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾.

وفي البند السادس ينهى عن كتمان الحق: ﴿ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

كتمان الحق، مثل خلط الحق بالباطل ذنب وجريمة، والآية تقول لهم: قولوا الحق ولو على أنفسكم، ولا تشوهوا وجه الحقيقة بخلطها بالباطل وإن تعرضت مصالحكم الآنية للخطر.

البند السابع والثامن والتاسع من هذه الأوامر يبينه قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ البقرة ٤٣.

البند الأخير يأمر بالصلاة جماعة، غير أن ((الركوع)) هو الذي ذكر دون غيره من أجزاء الصلاة، ولعل ذلك يعود إلى أنّ صلاة اليهود كانت خالية من الركوع، تماماً، بينما احتل الركوع مكان الرّكن الأساسي في صلاة المسلمين.

ومن الملفت للنظر أنّ الآية لم تقل ((أدّوا الصلاة))، بل قالت: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وهذا الحث يحمّل الفرد مسؤولية خلق المجتمع المصلي، ومسؤولية

جذب الآخرين نحو الصلاة.

بعض المفسرين قال إن تعبير ((أَقيمُوا)) إشارة إلى إقامة الصلاة كاملة، وعدم الاكتفاء بالاذكار والأوراد، وأهم أركان كمال الصلاة حضور القلب والفكر لدى الله سبحانه، وتأثير الصلاة على المحتوى الداخلي للإنسان.

هذه الأوامر الأخيرة تتضمن في الحقيقة: أولاً بيان إرتباط الفرد بخالقه (الصلاة)، ثمّ إرتباطه بالمخلوق (الزكاة)، وبعد ذلك إرتباط المجموعة البشرية مع بعضها على طريق الله!.

هل يؤيّد القرآن ما جاء في التّوراة والإنجيل؟!

في مواضع عديدة يصرّح القرآن بتصديقه لما جاء في الكتب الإلهية السابقة، كما جاء في الآية المذكورة: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ وكما جاء في الآيتين ٨٩ و ١٠١ من سورة البقرة: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾. وفي الآية ٤٨ من سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المائدة: ٤٨.

بعض دعاة اليهودية والنصرانية. استدلوا بهذه الآيات لإثبات عدم تحريف التوراة والإنجيل. وقالوا: إن التوراة والإنجيل في عصر نبي الإسلام لا يختلفان حتماً عمّا عليه الآن. وإن أصابهما تحريف فهذا التحريف يعود إلى فترة سابقة على ذلك العصر. ولما كان القرآن قد أيّد صحة التوراة والإنجيل الموجودين في عصر نبي الإسلام، فعلى المسلمين أن يعترفوا بصحة هذين الكتابين الموجودين بين ظهرانينا اليوم.

الجواب

يؤكد القرآن في مواضع عديدة وجود علائم نبي الإسلام ودينه في تلك الكتب المحرفة التي كانت موجودة في أيدي اليهود والنصارى آنذاك. وهذا يعني وجود حقائق في تلك الكتب لم تمتد إليها يد التحريف، ذلك لأنّ

التحريف لا يعني تغيير كل نصوص تلك الكتب السماويّة، بل إن تلك الكتب كانت تحمل بين طياتها حقائق، ومن تلك الحقائق علامات النّبي الخاتم (ولا زالت بعض هذه البشائر مشهودة في الكتب الموجودة الآن).

بعثة النّبي الخاتم (ص) وكتابه السماوي تصديق لما جاء في تلك الكتب من علامات، أي: تحقيق عملي لتلك العلامات. وكلمة التصديق بمعنى (التحقيق العملي) وردت في مواضع أُخرى من القرآن الكريم كقوله تعالى لنبيّه إبراهيم (ع): ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾الصافات: ١٠٥.

أي: أنك قد حققت عملياً رؤياك.

وتصرح الآية ١٥٧ من سورة الأعراف بأن الرّسول الأعظم (ص) تحقيق عملي لما يجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾الأعراف: ١٥٧.

على أي حال، ليس في الآيات المذكورة دلالة على تصديق جميع محتويات التوراة والإنجيل، بل دلالتها تقتصر على ((التصديق العملي)) لما جاء في الكتب الموجودة بيد اليهود والنصارى بشأن النّبي الخاتم وكتابه. هذا، إلى جانب وجود آيات عديدة في القرآن تتحدث عن تحريف اليهود والنصارى لآيات التوراة والإنجيل، وهو شاهد حيّ صريح على مسألة التحريف.

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾البقرة ٤٤-٤٦

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ ﴾؟! هذا السّؤال الإستنكاري ـ وإن كان موجهاً إلى بني إسرائيل كما يتبين من سياق الآيات السابقة والتالية ـ له حتماً مفهوم واسع يشمل الآخرين أيضاً.

قال ((الطّبرسي)) في ((مجمع البيان)): هذه الآية خطاب لعلماء اليهود.

وبّخهم الله تعالى على ما كانوا يفعلون من أمر النّاس بالإيمان بمحمّد (ص) وترك أنفسهم في ذلك.

وقال أيضاً: كان علماء اليهود يقولون لأقربائهم من المسلمين اثبتوا على ما أنتم عليه ولا يؤمنون هم.

لذلك كانت الآية الأُولى من الآيات التي يدور حولها بحثنا تحمل توبيخاً لهذا العمل: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾البقرة ٤٤ ؟!

منهج الدعاة إلى الله يقول على أساس العمل أوّلاً ثم القول. فالدّاعية إلى الله يبلّغ بعمله قبل قوله، كما جاء في الحديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق(ع): ((كُونُوا دُعَاةَ النَّاسِ بِأَعْمَالِكُمْ وَلاَ تَكُونُوا دُعَاةً بِأَلْسِنَتِكُمْ)).

التأثير العميق للدعوة العملية يأتي من قدرة مثل هذه الدعوة على فتح منافذ قلب السامع، فالسامع يثق بما يقوله الداعية العامل، ويرى أن هذا الداعية مؤمن بما يقول وأن ما يقوله صادر عن القلب. والكلام الصادر عن القلب ينفذ إلى القلب. وأفضل دليل على إيمان القائل بما يقوله، هو العمل بقوله قبل غيره، كما يقول علي(ع): ((أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَالله مَا أَحُثُّكُمْ على طَاعَة إِلاَّ وأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلاَ أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَة إِلاَّ وَأَتَنَاهَىٰ قَبْلَكُمْ عَنْهَا)).

وفي حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق(ع): ((مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَة مَنْ وَصَفَ عَدْلا وَعَمِلَ بِغَيْرِه)).

علماء اليهود كانوا يخشون من انهيار مراكز قدرتهم وتفرّق عامة النّاس عنهم، إن اعترفوا برسالة خاتم الأنبياء (ص)، ولذلك حرّفوا ما ورد بشأن صفات نبي الإسلام في التوراة.

والقرآن يحث على الاستعانة بالصبر والصّلاة للتغلب على الأهواء الشخصية والميول النفسية، فيقول في الآية التالية: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴾ ثم يؤكد أن هذه الاستعانة ثقيلة لا ينهض بعبئها إلاَّ الخاشعون: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ

﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ البقرة ٤٥.

وفي الآية الأخيرة من هذه المجموعة وصف للخاشعين: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

كلمة ((يَظُنُّونَ)) من مادة ((ظنّ)) وقد تأتي بمعنى اليقين. وفي هذا الموضع تعني الإيمان واليقين القطعي. لأن الإيمان بلقاء الله والرجوع إليه، يحيي في قلب الإنسان حالة الخشوع والخشية والإحساس بالمسؤولية، وهذا أحد آثار تربية الإنسان على الإيمان بالمعاد، حيث تجعل هذه التربية الفرد مائلاً دوماً أمام مشهد المحكمة الكبرى، وتدفعه إلى النهوض بالمسؤولية وإلى الحق والعدل.

ويحتمل أن يكون استعمال ((الظن)) في الآية للتأكيد، أي: أن الإنسان لو ظنّ بالآخرة فقط فظنه كاف لأن يصده عن ارتكاب أي ذنب. وهو تقريع لعلماء اليهود وتأكيد على أنهم لا يمتلكون إيماناً باليوم الآخر حتى على مستوى الظن، فلو ظنوا بالآخرة لأحسّوا بالمسؤولية، وكفّوا عن هذه التحريفات!

ما هو لقاء اللّه؟

عبارة ((لقاء الله)) وردت مراراً في القرآن الكريم، وتعني بأجمعها الحضور على مسرح القيامة. من البديهي أن المقصود بلقاء الله ليس هو اللقاء الحسّي، كلقاء أفراد البشر مع بعضهم، لأن الله ليس بجسم، ولا يحده مكان، ولا يرى بالعين. بل المقصود مشاهدة آثار قدرة الله وجزائه وعقابه ونعمه وعذابه على ساحة القيامة، كما ذهب إلى ذلك جمع من المفسرين.

أو إن المقصود الشهود الباطني والقلبي، لأن الإنسان يصل درجة كأنه يرى الله ببصيرته أمامه، بحيث لا يبقى في نفسه أي شك وترديد.

هذه الحالة قد تحصل للأفراد نتيجة الطّهر والتقوى والعبادة وتهذيب النفس في هذه الدنيا. وفي ((نهج البلاغة)) نقرأ: أن ((ذعلب اليماني)) وهو

من فضلاء أصحاب الإمام علي بن أبي طالب(ع)، سأل علياً هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟
أجابه علي: أَفَأَعْبُدُ مَا لاَ أَرى؟!
وحين طلب ذعلب مزيداً من التوضيح قال الإمام:
((لاَ تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيَانِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ)).
هذا الشهود الباطني ينجلي للجميع يوم القيامة، ولا يبقى أحد إلاَّ وقد آمن إيماناً قاطعاً، لوضوح آثار عظمة الله وقدرته في ذلك اليوم.

*** الفخر الرازي:**

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾البقرة ٤٠

أعلم أن فيه مسائل:

المسألة الأولى: اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن إبراهيم ويقولون إن معنى إسرائيل عبد الله لأن «إسرا» في لغتهم هو العبد و «إيل» هو الله وكذلك جبريل وهو عبد الله وميكائيل عبد الله. قال القفال: قيل إن «إسرا» بالعبرانية في معنى إنسان فكأنه قيل رجل الله فقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ خطاب مع جماعة اليهود الذين كانوا بالمدينة من ولد يعقوب (عليه السلام) في أيام محمد (صلى الله عليه وسلم).

المسألة الثانية: حد النعمة أنها المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير وإذا عرفت حد النعمة فلنفرع عليه فروعاً: الفرع الأول: اعلم أن كل ما يصل إلينا آناء الليل والنهار في الدنيا والآخرة من النفع ودفع الضرر فهو من الله تعالى على ما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾النحل: ٥٣، ثم إن النعمة على ثلاثة أوجه: أحدها: نعمة تفرد الله بها نحو أن خلق ورزق، وثانيها: نعمة وصلت إلينا من جهة غيره بأن خلقها وخلق المنعم ومكنه من الإنعام وخلق فيه قدرة الإنعام وداعيته ووفقه عليه وهداه إليه، فهذه النعمة

في الحقيقة أيضاً من الله تعالى، إلاّ أنه تعالى لما أجراها على يد عبده كان ذلك العبد مشكوراً، ولكن المشكور في الحقيقة هو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ لقمان: ١٤ فبدأ بنفسه، وقال (عليه السلام): «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». وثالثها: نعمة وصلت إلينا من الله تعالى بواسطة طاعاتنا وهي أيضاً من الله تعالى؛ لأنه لولا أنه سبحانه وتعالى وفقنا على الطاعات وأعاننا عليها وهدانا إليها وأزاح الأعذار وإلاّ لما وصلنا إلى شيء منها، فظهر بهذا التقرير أن جميع النعم من الله تعالى على ما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ النحل: ٥٣.

الفرع الثاني: أن نعم الله تعالى على عبيده مما لا يمكن عدها وحصرها على ما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ النحل: ١٨ وإنما لا يمكن ذلك لأن كل ما أودع فينا من المنافع واللذات التي ننتفع بها والجوارح والأعضاء التي نستعملها في جلب المنافع ودفع المضار وما خلق الله تعالى في العالم مما يلتذ به ويستدل على وجود الصانع وما وجد في العالم مما يحصل الانزجار برؤيته عن المعاصي مما لا يحصى عدده وكل ذلك منافع لأن المنفعة هي اللذة أو ما يكون وسيلة إلى اللذة وجميع ما خلق الله تعالى كذلك؛ الفرع الثالث: أن أول ما أنعم الله به على عبيده هو أن خلقهم أحياء والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ البقرة: ٢٨ - ٢٩ إلى آخر الآية، وهذا صريح في أن أصل النعم الحياة؛ لأنه تعالى أول ما ذكر من النعم فإنما ذكر الحياة ثم إنه تعالى ذكر عقيبها سائر النعم وأنه تعالى إنما ذكر المؤمنين ليبين أن المقصود من حياة الدنيا حياة الآخرة والثواب. وبين أن جميع ما خلق قسمان منتفع ومنتفع به، هذا قول المعتزلة.

وقال أهل السنة: إنه سبحانه كما خلق المنافع خلق المضار ولا اعتراض لأحد عليه، ولهذا سمى نفسه «النافع الضار» ولا يسأل عما يفعل.

المسألة الثالثة: في النعم المخصوصة ببني إسرائيل قال بعض العارفين: عبيد النعم كثيرون وعبيد المنعم قليلون، فالله تعالى ذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم ولما آل الأمر إلى أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ذكرهم بالمنعم فقال: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ البقرة: ١٥٢فدل ذلك على فضل أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) على سائر الأمم.

أما قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ فاعلم أن العهد يضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً وذكروا في هذا العهد قولين: الأول: أن المراد منه جميع ما أمر الله به من غير تخصيص ببعض التكاليف دون بعض ثم فيه روايات. إحداها: أنه تعالى جعل تعريفه إياهم نعمه عهداً له عليهم من حيث يلزمهم القيام بشكرها كما يلزمهم الوفاء بالعهد والميثاق، وقوله: ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أراد به الثواب والمغفرة. فجعل الوعد بالثواب شبيهاً بالعهد من حيث اشتراكهما في أنه لا يجوز الإخلال به. ثانيها: قال الحسن: المراد منه العهد الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾المائدة: ١٢ فمن وفى لله بعهده وفى الله له بعهده، وثالثها: وهو قول جمهور المفسرين أن المراد أوفوا بما أمرتكم به من الطاعات ونهيتكم عنه من المعاصي أوف بعهدكم، أي أرضى عنكم وأدخلكم الجنة وهو الذي حكاه الضحاك عن ابن عباس وتحقيقه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾التوبة: ١١١ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦۚ ﴾التوبة: ١١١ .

القول الثاني: أن المراد من هذا العهد ما أثبته في الكتب المتقدمة من وصف محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنه سيبعثه على ما صرح بذلك في سورة المائدة بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾المائدة: ١٢ إلى قوله:

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ المائدة: ١٢ وقال في سورة الأعراف: ﴿أَسَآءُ بِهِۦ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧ وأما عهد الله معهم فهو أن ينجز لهم ما وعدهم من وضع ما كان عليهم من الإصر والأغلال التي كانت في أعناقهم، وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ﴾ آل عمران: ٨١ الآية. وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ الصف: ٦. وقال ابن عباس: إن الله تعالى كان عهد إلى بني إسرائيل في التوراة أني باعث من بني إسماعيل نبياً أمياً فمن تبعه وصدق بالنور الذي يأتي به أي بالقرآن غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة وجعلت له أجرين، أجراً باتباع ما جاء به موسى وجاءت به سائر أنبياء بني إسرائيل، وأجراً باتباع ما جاء به محمد النبي الأمي من ولد إسماعيل وتصديق هذا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ القصص: ٥٢ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ القصص: ٥٤ وكان علي بن عيسى يقول تصديق ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ الحديد: ٢٨.

ولنذكر الآن بعض ما جاء في كتب الأنبياء المتقدمين من البشارة بمقدم محمد (صلى الله عليه وسلم)، فالأول: جاء في الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة أن هاجر لما غضبت عليها سارة تراءى لها ملك (من قبل) الله فقال لها يا هاجر أين تريدين ومن أين أقبلت؟ قالت: أهرب من سيدتي سارة فقال لها: ارجعي إلى سيدتك واخفضي لها فإن الله سيكثر زرعك وذريتك وستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه إسماعيل من أجل أن الله سمع تبتلك وخشوعك وهو يكون عين الناس وتكون يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع

وهو يشكر على رغم جميع إخوته.

واعلم أن الاستدلال بهذا الكلام أن هذا الكلام خرج مخرج البشارة وليس يجوز أن يبشر الملك من قبل الله بالظلم والجور وبأمر لا يتم إلاّ بالكذب على الله تعالى ومعلوم أن إسماعيل وولده لم يكونوا متصرفين في الكل أعني في معظم الدنيا ومعظم الأمم ولا كانوا مخالطين للكل على سبيل الاستيلاء إلاّ بالإسلام؛ لأنهم كانوا قبل الإسلام محصورين في البادية لا يتجاسرون على الدخول في أوائل العراق وأوائل الشام إلاّ على أتم خوف، فلما جاء الإسلام استولوا على الشرق والغرب بالإسلام ومازجوا الأمم ووطئوا بلادهم ومازجتهم الأمم وحجوا بيتهم ودخلوا باديتهم بسبب مجاورة الكعبة، فلو لم يكن النبي (صلى الله عليه وسلم) صادقاً لكانت هذه المخالطة منهم للأمم ومن الأمم لهم معصية لله تعالى وخروجاً عن طاعته إلى طاعة الشيطان والله يتعالى عن أن يبشر بما هذا سبيله. والثاني: جاء في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس: «إن الرب إلهكم يقيم لكم نبياً مثلي من بينكم ومن إخوانكم»، وفي هذا الفصل أن الرب تعالى قال لموسى: «إني مقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوانهم وأيما رجل لم يسمع كلماتي التي يؤديها عني ذلك الرجل باسمي أنا أنتقم منه». وهذا الكلام يدل على أن النبي الذي يقيمه الله تعالى ليس من بني إسرائيل، ثم إن يعقوب (عليه السلام) هو إسرائيل ولم يكن له أخ إلاّ العيص ولم يكن للعيص ولد من الأنبياء سوى أيوب وإنه كان قبل موسى عليه السلام فلا يجوز أن يكون موسى (عليه السلام) مبشراً به، وأما اسماعيل فإنه كان أخاً لإسحق والد يعقوب ثم إن كل نبي بعث بعد موسى كان من بني إسرائيل، فالنبي (عليه السلام) ما كان منهم لكنه كان من إخوانهم لأنه من ولد إسماعيل الذي هو أخو إسحق (عليهم السلام). فإن قيل قوله: «من بينكم» يمنع من أن يكون المراد محمداً (صلى الله عليه وسلم)، لأنه لم يقم من بين بني إسرائيل. قلنا: بل قد قام من بينهم، لأنه (عليه السلام) ظهر بالحجاز فبعث بمكة وهاجر

إلى المدينة وبها تكامل أمره. وقد كان حول المدينة بلاد اليهود كخيبر وبني قينقاع والنضير وغيرهم، وأيضاً فإن الحجاز يقارب الشام وجمهور اليهود كانوا إذ ذاك بالشام، فإذا قام محمد بالحجاز فقد قام من بينهم، وأيضاً فإنه إذا كان من إخوانهم فقد قام من بينهم فإنه ليس ببعيد منهم. والثالث: روى السمان في تفسيره في السفر الأول من التوراة أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم (عليه السلام) قال: «قد أجبت دعاك في إسماعيل وباركت عليه فكبرته وعظمته جداً جداً وسيلد اثني عشر عظيماً وأجعله لأمة عظيمة» والاستدلال به أنه لم يكن في ولد إسماعيل من كان لأمة عظيمة غير نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) فأما دعاء إبراهيم (عليه السلام) وإسماعيل فكان لرسولنا (عليه الصلاة والسلام) لما فرغا من بناء الكعبة وهو قوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ البقرة: ١٥٢، ولهذا كان يقول عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى» وهو قوله: ﴿ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ ﴾ الصف: ٦. فإنه مشتق من الحمد والاسم المشتق من الحمد ليس إلاّ لنبينا فإن اسمه محمد وأحمد ومحمود. قيل إن صفته في التوراة أن مولده بمكة ومسكنه بطيبة وملكه بالشام وأمته الحمادون. فهذه هي بعض البشارات الواردة في الكتب المتقدمة بمبعث رسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم).

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾

اعلم أن المخاطبين بقوله: ﴿ وَءَامِنُواْ ﴾ هم بنو اسرائيل ويدل عليه وجهان. الأول: أنه معطوف على قوله: ﴿اذكروا نِعْمَتِيَ التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كأنه قيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي وآمنوا بما أنزلت. الثاني: أن قوله تعالى: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ يدل على ذلك.

أما قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ ففيه قولان، الأقوى أنه القرآن وعليه دليلان. أحدهما: أنه وصفه بكونه منزلاً وذلك هو القرآن لأنه تعالى قال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ آل عمران: ٣. والثاني: وصفه بكونه مصدقاً لما معهم من الكتب وذلك هو القرآن. وقال قتادة: المراد ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ من كتاب ورسول تجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل.

أما قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ ففيه تفسيران: أحدهما: أن في القرآن أن موسى وعيسى حق وأن التوراة والإنجيل حق وأن التوراة أنزلت على موسى والإنجيل على عيسى (عليهما السلام) فكان الإيمان بالقرآن مؤكداً للإيمان بالتوراة والإنجيل فكأنه قيل لهم: إن كنتم تريدون المبالغة في الإيمان بالتوراة والإنجيل فآمنوا بالقرآن فإن الإيمان به يؤكد الإيمان بالتوراة والإنجيل. والثاني: أنه حصلت البشارة بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وبالقرآن في التوراة والإنجيل فكأن الإيمان بمحمد وبالقرآن تصديقاً للتوراة والإنجيل، وتكذيب محمد والقرآن تكذيباً للتوراة، والإنجيل، وهذا التفسير أولى لأن على التفسير الأول لا يلزم الإيمان بمحمد (عليه السلام)؛ لأنه بمجرد كونه مخبراً عن كون التوراة والإنجيل حقاً لا يجب الإيمان بنبوته: أما على التفسير الثاني يلزم الإيمان به لأن التوراة والإنجيل إذا اشتملا على كون محمد (صلى الله عليه وسلم) صادقاً فالإيمان بالتوراة والإنجيل يوجب الإيمان بكون محمد صادقاً لا محالة، ومعلوم أن الله تعالى إنما ذكر هذا الكلام ليكون حجة عليهم في وجوب الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم)، فثبت أن هذا التفسير أولى. واعلم أن هذا التفسير الثاني يدل على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) من وجهين: الأول: أن شهادة كتب الأنبياء (عليهم السلام) لا تكون إلاّ حقاً، والثاني: أنه (عليه السلام) أخبر عن كتبهم ولم يكن له معرفة بذلك إلاّ من قبل الوحي.

أما قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ فمعناه أول من كفر به أو أول فريق أو فوج كافر به أو ولا يكن كل واحد منكم أول كافر به. ثم فيه سؤلان: الأول:

كيف جعلوا أول من كفر به وقد سبقهم إلى الكفر به مشركو العرب؟ والجواب من وجوه: أحدها: أن هذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفته ولأنهم كانوا هم المبشرون بزمان محمد (صلى الله عليه وسلم) والمستفتحون على الذين كفروا به فلما بعث كان أمرهم على العكس لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ ﴾ البقرة: ٨٩. وثانيها: يجوز أن يراد ولا تكونوا مثل أول كافر به يعني من أشرك من أهل مكة، أي ولا تكونوا وأنتم تعرفونه مذكوراً في التوراة والإنجيل مثل من لم يعرفه وهو مشرك لا كتاب له. وثالثها: ولا تكونوا أول كافر به من أهل الكتاب لأن هؤلاء كانوا أول من كفر بالقرآن من بني إسرائيل وإن كانت قريش كفروا به قبل ذلك.

أما قوله: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فقد بينا في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ البقرة: ١٦، أن الاشتراء يوضع موضع الاستبدال فكذا الثمن يوضع موضع البدل عن الشيء، والعوض عنه، فإذا اختير على ثواب الله شيء من الدنيا فقد جعل ذلك الشيء ثمناً عند فاعله. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن رؤساء اليهود مثل كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وأمثالهما كانوا يأخذون من فقراء اليهود الهدايا وعلموا أنهم لو اتبعوا محمداً لانقطعت عنهم تلك الهدايا، فأصروا على الكفر لئلا ينقطع عنهم ذلك القدر المحقر.

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة ٤١

أعلم أن قوله سبحانه ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ ﴾ أمر بترك الكفر والضلال وقوله: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ أمر بترك الإغراء والإضلال، واعلم أن إضلال الغير لا يحصل إلاّ بطريقين، وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلاّ بتشويش تلك الدلائل عليه وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول إليها. فقوله: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ إشارة إلى القسم الأول وهو تشويش الدلائل عليه وقوله: ﴿ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ إشارة إلى القسم الثاني وهو منعه من الوصول إلى

الدلائل، واعلم أن الأظهر في الباء التي في قوله: ﴿ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ أنها باء الاستعانة كالتي في قولك: كتبت بالقلم والمعنى ولا تلبسوا الحق بسبب الشبهات التي توردونها على السامعين، وذلك لأن النصوص الواردة في التوراة والإنجيل في أمر محمد عليكم كانت نصوصاً خفية يحتاج في معرفتها إلى الاستدلال، ثم إنهم كانوا يجادلون فيها ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب إلقاء الشبهات، فهذا هو المراد بقوله: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ فهو المذكور في قوله: ﴿ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾غافر: ٥. أما قوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تعلمون ما في إضلال الخلق من الضرر العظيم العائد عليكم يوم القيامة، وذلك لأن ذلك التلبيس صار صارفاً للخلق عن قبول الحق إلى يوم القيامة وداعياً لهم إلى الاستمرار على الباطل إلى يوم القيامة ولا شك في أن موقعه عظيم، وهذا الخطاب وإن ورد فيهم، فهو تنبيه لسائر الخلق وتحذير من مثله فصار الخطاب وإن كان خاصاً في الصورة لكنه عام في المعنى.

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾البقرة ٤٣

اعلم أن الله سبحانه وتعالى لما أمرهم بالإيمان أولاً ثم نهاهم عن لبس الحق بالباطل وكتمان دلائل النبوة ثانياً، ذكر بعد ذلك بيان ما لزمهم من الشرائع وذكر من جملة الشرائع ما كان كالمقدم والأصل فيها وهو الصلاة التي هي أعظم العبادات البدنية والزكاة التي هي أعظم العبادات المالية.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ خطاب مع اليهود وذلك يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع. أما قوله تعالى: ﴿ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾البقرة:٤٣ ففيه وجوه أحدها: أن اليهود لا ركوع في صلاتهم فخص الله الركوع بالذكر تحريضاً لهم على الإتيان بصلاة المسلمين، وثانيها: أن المراد صلّوا مع المصلين، وعلى هذا يزول التكرار لأن في الأول أمر تعالى بإقامتها وأمر في الثاني بفعلها في الجماعة، وثالثها: أن يكون المراد من الأمر

بالركوع هو الأمر بالخضوع لأن الركوع والخضوع في اللغة سواء فيكون نهياً عن الاستكبار المذموم وأمراً بالتذلل كما قال للمؤمنين: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾المائدة: ٥٤، وكقوله تأديباً لرسوله (عليه السلام): ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٥، وكمدحه له بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران: ١٥٩ وهكذا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾المائدة: ٥٥ فكأنه تعالى لما أمرهم بالصلاة والزكاة أمرهم بعد ذلك بالانقياد والخضوع وترك التمرد. وحكى الأصم عن بعضهم أنه إنما أمر الله تعالى بني إسرائيل بالزكاة لأنهم كانوا لا يؤتون الزكاة وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣]، وبقوله: ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾النساء: ١٦١ فأظهر الله تعالى في هذا الموضع ما كان مكتوباً ليحذروا أن يفضحهم في سائر أسرارهم ومعاصيهم فيصير هذا كالإخبار عن الغيب الذي هو أحد دلائل نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم).

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾البقرة ٤٤

اعلم أن الهمزة في أتأمرون الناس بالبر للتقرير مع التقريع والتعجب من حالهم، وأما البر فهو اسم جامع لأعمال الخير، ومنه بر الوالدين وهو طاعتهما، ومنه عمل مبرور، أي قد رضيه الله تعالى وقد يكون بمعنى الصدق كما يقال بر في يمينه أي صدق ولم يحنث، ويقال: صدقت وبررت، وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ البقرة: ١٨٩ فأخبر أن البر جامع للتقوى، واعلم أنه سبحانه وتعالى لما أمر بالإيمان والشرائع بناء على ما خصهم به من النعم ورغبهم في ذلك بناء على مأخذ آخر، وهو أن التغافل عن أعمال البر مع حث الناس عليها مستقبح في العقول، إذ المقصود من أمر الناس بذلك إما النصيحة أو الشفقة، وليس من العقل أن يشفق الإنسان على غيره أو أن ينصح غيره ويهمل نفسه فحذرهم الله تعالى من ذلك بأن قرعهم بهذا الكلام. واختلفوا في المراد بالبر

في هذا الموضع على وجوه، أحدها: وهو قول السدي أنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وينهونهم عن معصية الله، وهم كانوا يتركون الطاعة ويقدمون على المعصية، وثانيها: قول ابن جريج أنهم كانوا يأمرون الناس بالصلاة والزكاة وهم كانوا يتركونهما. وثالثها: أنه إذا جاءهم أحد في الخفية لاستعلام أمر محمد (صلى الله عليه وسلم) قالوا: هو صادق فيما يقول وأمره حق فاتبعوه، وهم كانوا لا يتبعونه لطمعهم في الهدايا والصلات التي كانت تصل إليهم من أتباعهم، ورابعها: أن جماعة من اليهود كانوا قبل مبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) يخبرون مشركي العرب أن رسولاً سيظهر منكم ويدعو إلى الحق وكانوا يرغبونهم باتباعه فلما بعث الله محمداً حسدوه وكفروا به، فبكتهم الله تعالى بسبب أنهم كانوا يأمرون باتباعه قبل ظهوره، فلما ظهر تركوه وأعرضوا عن دينه، وهذا اختيار أبي مسلم، وخامسها: وهو قول الزجاج أنهم كانوا يأمرون الناس ببذل الصدقة، وكانوا يشحون بها لأن الله تعالى وصفهم بقساوة القلوب وأكل الربا والسحت، وسادسها: لعل المنافقين من اليهود كانوا يأمرون باتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) في الظاهر، ثم إنهم كانوا في قلوبهم منكرين له فوبخهم الله تعالى عليه، وسابعاً: أن اليهود كانوا يأمرون غيرهم باتباع التوراة ثم إنهم خالفوه لأنهم وجدوا فيها ما يدل على صدق محمد (صلى الله عليه وسلم)، ثم إنهم ما آمنوا به، أما قوله: ﴿ **وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ** ﴾ فالنسيان عبارة عن السهو الحادث بعد حصول العلم والناسي غير مكلف ومن لا يكون مكلفاً لا يجوز أن يذمه الله تعالى على ما صدر منه، فالمراد بقوله: ﴿ **وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ** ﴾ أنكم تغفلون عن حق أنفسكم وتعدلون عما لها فيه من النفع، أما قوله: ﴿ **وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ** ﴾ البقرة: ٤٤فمعناه تقرأون التوراة وتدرسونها وتعلمون بما فيها من الحث على أفعال البر والإعراض عن أفعال الإثم. وأما قوله: ﴿ **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾فهو تعجب للعقلاء من أفعالهم ونظيره قوله تعالى: ﴿ **أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾الأنبياء:

٦٧ وسبب التعجب وجوه، الأول: أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الغير إلى تحصيل المصلحة وتحذيره عما يوقعه في المفسدة، والإحسان إلى النفس أولى من الإحسان إلى الغير وذلك معلوم بشواهد العقل والنقل فمن وعظ ولم يتعظ فكأنه أتى بفعل متناقض لا يقبله العقل فلهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. الثاني: أن من وعظ الناس وأظهر علمه للخلق ثم لم يتعظ صار ذلك الوعظ سبباً لرغبة الناس في المعصية لأن الناس يقولون أنه مع هذا العلم لولا أنه مطلع على أنه لا أصل لهذه التخويفات وإلاّ لما أقدم على المعصية فيصير هذا داعياً لهم إلى التهاون بالدين والجراءة على المعصية، فإذا كان غرض الواعظ الزجر عن المعصية ثم أتى بفعل يوجب الجراءة على المعصية فكأنه جمع بين المتناقضين، وذلك لا يليق بأفعال العقلاء، فلهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. الثالث: أن من وعظ فلا بد وأن يجتهد في أن يصير وعظه نافذاً في القلوب. والإقدام على المعصية مما ينفر القلوب عن القبول، فمن وعظ كان غرضه أن يصير وعظه مؤثراً في القلوب، ومن عصى كان غرضه أن لا يصير وعظه مؤثراً في القلوب. فالجمع بينهما متناقض غير لائق بالعقلاء، ولهذا قال علي رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك.

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ البقرة ٤٥

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في المخاطبين بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ فقال قوم: هم المؤمنون بالرسول. قال: لأن من ينكر الصلاة أصلاً والصبر على دين محمد (صلى الله عليه وسلم) لا يكاد يقال له استعن بالصبر والصلاة، فلا جرم وجب صرفه إلى من صدق بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ولا يمتنع أن يكون الخطاب أولاً في بني إسرائيل، ثم يقع بعد ذلك خطاباً للمؤمنين بمحمد (صلى الله عليه وسلم) والأقرب أن المخاطبين هم

بنو إسرائيل لأن صرف الخطاب إلى غيرهم يوجب تفكيك النظم. فإن قيل: كيف يؤمرون بالصبر والصلاة مع كونهم منكرين لهما؟ قلنا: لا نسلم كونهم منكرين لهما. وذلك لأن كل أحد يعلم أن الصبر على ما يجب الصبر عليه حسن وأن الصلاة التي هي تواضع للخالق والاشتغال بذكر الله تعالى يسلي عن محن الدنيا وآفاتها، إنما الاختلاف في الكيفية، فإن صلاة اليهود واقعة على كيفية وصلاة المسلمين على كيفية أخرى. وإذا كان متعلق الأمر هو الماهية التي هي القدر المشترك زال الإشكال المذكور وعلى هذا نقول: إنه تعالى لما أمرهم بالإيمان وبترك الإضلال وبالتزام الشرائع وهي الصلاة والزكاة؛ وكان ذلك شاقاً عليهم لما فيه من ترك الرياسات والإعراض عن المال والجاه لا جرم عالج الله تعالى هذا المرض فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

المسألة الثانية: ذكروا في الصبر والصلاة وجوهاً، أحدها: كأنه قيل واستعينوا على ترك ما تحبون من الدنيا والدخول فيما تستثقله طباعكم من قبول دين محمد (صلى الله عليه وسلم) بالصبر أي يحبس النفس عن اللذات، فإنكم إذا كلفتم أنفسكم ذلك مرنت عليه وخف عليها ثم إذا ضممتم الصلاة إلى ذلك تم الأمر، لأن المشتغل بالصلاة لا بد وأن يكون مشتغلاً بذكر الله عزّ وجلّ وذكر جلاله وقهره وذكر رحمته وفضله، فإذا تذكر رحمته صار مائلاً إلى طاعته وإذا تذكر عقابه ترك معصيته فيسهل عند ذلك اشتغاله بالطاعة وتركه للمعصية، وثانيها: المراد من الصبر ههنا هو الصوم لأن الصائم صابر عن الطعام والشراب، ومن حبس نفسه عن قضاء شهوة البطن والفرج زالت عنه كدورات حب الدنيا، فإذا انضاف إليه الصلاة استنار القلب بأنوار معرفة الله تعالى وإنما قدم الصوم على الصلاة لأن تأثير الصوم في إزالة ما لا ينبغي وتأثيره الصلاة في حصول ما ينبغي والنفي مقدم على الإثبات، ولأنه (عليه الصلاة والسلام) قال: «الصوم جنة من النار». وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ العنكبوت: ٤٥ ؛ لأن الصلاة تمنع عن الاشتغال

بالدنيا وتخشع القلب ويحصل بسببها تلاوة الكتاب والوقوف على ما فيه من الوعد والوعيد والمواعظ والآداب الجميلة، وذكر مصير الخلق إلى دار الثواب أو دار العقاب رغبة في الآخرة ونفرة عن الدنيا فيهون على الإنسان حينئذ ترك الرياسة، ومقطعة عن المخلوقين إلى قبلة خدمة الخالق ونظير هذه الآية قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾البقرة ١٥٣ . أما قوله تعالى: ﴿ أَنَّهُم ﴾ ففي هذا الضمير وجوه، أحدها: الضمير عائد إلى الصلاة أي صلاة ثقيلة إلاّ على الخاشعين. وثانيها: الضمير عائد إلى الاستعانة التي يدل عليها قوله: ﴿واسْتَعِينُوا﴾. وثالثها: أنه عائد إلى جميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها من قوله: ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ إلى قوله:﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ ﴾ والعرب قد تضمر الشيء اختصاراً أو تقتصر فيه على الإيماء إذا وثقت بعلم المخاطب فيقول القائل: ما عليها أفضل من فلان يعني الأرض. بالنعيم المقيم والخلاص من العذاب الأليم، ألا ترى إلى قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ ﴾ أي يتوقعون نيل ثوابه والخلاص من عقابه. مثاله إذا قيل للمريض: كل هذا الشيء المر فإن اعتقد أن له فيه شفاء سهل ذلك عليه، وإن لم يعتقد ذلك فيه صعب الأمر عليه، وعليه يحمل قوله (عليه الصلاة والسلام): «وجعلت قرة عيني في الصلاة». وصف الصلاة بذلك للوجوه التي ذكرناها لا لأنها كانت لا تثقل عليه، وكيف وكان عليه الصلاة والسلام يصلي حتى تورمت قدماه، وأما الخشوع فهو التذلل والخضوع.

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾البقرة ٤٦

أما قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ ﴾فللمفسرين فيه قولان: الأول: أن الظن بمعنى العلم. قالوا: لأن الظن وهو الاعتقاد الذي يقارنه تجويز النقيض يقتضي أن يكون صاحبه غير جازم بيوم القيامة وذلك كفر والله تعالى مدح على هذا الظن والمدح على الكفر غير جائز، فوجب أن يكون المراد من الظن ههنا العلم، وسبب هذا المجاز أن العلم والظن يشتركان في كون كل واحد

منهما اعتقاداً راجحاً إلاّ أن العلم راجح مانع من النقيض والظن راجح غير مانع من النقيض، فلما اشتبها من هذا الوجه صح إطلاق اسم أحدها على الآخر، قال أوس بن حجر:

فأرسلته مستيقن الظن أنه مخالط ما بين الشراسيف خائف

وقال تعالى: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ الحاقة: ٢٠ ، وقال: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ المطففين: ٤ ذكر الله تعالى ذلك إنكاراً عليهم وبعثاً على الظن ولا يجوز أن يبعثهم على الاعتقاد المجوز للنقيض فثبت أن المراد بالظن ههنا العلم.

القول الثاني: أن يحمل اللفظ على ظاهره وهو الظن الحقيقي، ثم ههنا وجوه. الأول: أن تجعل ملاقاة الرب مجازاً عن الموت، وذلك لأن ملاقاة الرب مسبب عن الموت فأطلق المسبب والمراد منه السبب، وهذا مجاز مشهور فإنه يقال لمن مات إنه لقي ربه. إذا ثبت هذا فنقول: وإنها لكبيرة إلاّ على الخاشعين الذين يظنون الموت في كل لحظة، وذلك لأن كل من كان متوقعاً للموت في كل لحظة فإنه لا يفارق قلبه الخشوع فهم يبادرون إلى التوبة، لأن خوف الموت مما يقوي دواعي التوبة ولأنه مع خشوعه لا بد في كل حال من أن لا يأمن تقصيراً جرى منه فيلزمه التلافي، فإذا كان حاله ما ذكرنا كان ذلك داعياً إلى المبادرة إلى التوبة، الثاني: أن تفسر ملاقاة الرب بملاقاة ثواب الرب وذلك مظنون لا معلوم فإن الزاهد العابد لا يقطع بكونه ملاقياً لثواب الله بل يظن إلاّ أن ذلك الظن مما يحمله على كمال الخشوع. الثالث: المعنى الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم بذنوبهم فإن الإنسان الخاشع قد يسيء ظنه بنفسه وبأعماله فيغلب على ظنه أنه يلقى الله تعالى بذنوبه فعند ذلك يسارع إلى التوبة وذلك من صفات المدح. بقي هنا مسألتان:

المسألة الأولى: استدل بعض الأصحاب بقوله: ﴿ مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ على جواز رؤية الله تعالى وقالت المعتزلة: لفظ اللقاء لا يفيد الرؤية والدليل عليه الآية والخبر والعرف. أما الآية فقوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾

التوبة: ٧٧ . والمنافق لا يرى ربه، وقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾الفرقان: ٦٨، وقال تعالى في معرض التهديد: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾البقرة ٢٢٣

فهذا يتناول الكافر والمؤمن، والرؤية لا تثبت للكافر فعلمنا أن اللقاء ليس عبارة عن الرؤية.

وأما الخبر فقوله (عليه السلام): «من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان» وليس المراد رأى الله تعالى لأن ذلك وصف أهل النار، وأما العرف فهو قول المسلمين فيمن مات: لقي الله، ولا يعنون أنه رأى الله عزّ وجلّ، وأيضاً فاللقاء يراد به القرب ممن يلقاه على وجه يزول الحجاب بينهما. ولذلك يقول الرجل إذا حجب عن الأمير: ما لقيته بعد وإن كان قد رآه، وإذا أذن له في الدخول عليه يقول: لقيته، وإن كان ضريراً، ويقال: لقي فلان جهداً شديداً ولقيت من فلان الداهية. ولاقى فلان حمامه، وكل ذلك يدل على أن اللقاء ليس عبارة عن الرؤية. ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾القمر: ١٢. وهذا إنما يصح في حق الجسم ولا يصح على الله تعالى.

المسألة الثانية: المراد من الرجوع إلى الله تعالى الرجوع إلى حيث لا يكون لهم مالك سواه وأن لا يملك لهم أحد نفعاً ولا ضراً غيره، كما كانوا كذلك في أول الخلق فجعل مصيرهم إلى مثل ما كانوا عليه أولاً رجوعاً إلى الله من حيث كانوا في سائر أيام حياتهم قد يملك غيره الحكم عليهم ويملك أن يضرهم وينفعهم وإن كان الله تعالى مالكاً لهم في جميع أحوالهم، وقد احتج بهذه الآية فريقان من المبطلين. الأول: المجسمة فإنهم قالوا: الرجوع إلى غير الجسم محال فلما ثبت الرجوع إلى الله وجب كون الله جسماً. الثاني: التناسخية فإنهم قالوا: الرجوع إلى الشيء مسبوق بالكون عنده، فدلت هذه الآية على كون الأرواح قديمة وأنها كانت موجودة في عالم الروحانيات والجواب عنها قد حصل بناء على ما تقدم.

*** الطباطبائي:**

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ البقرة ٤٠-٤٤

أخذ سبحانه في معاتبة اليهود وذلك في طي نيف ومائة آية يذكر فيها نِعَمه التي أفاضها عليهم، وكراماته التي حباهم بها، وما قابلوها من الكفر والعصيان ونقض الميثاق والتمرد والجحود، يذكرهم بالإشارة إلى اثنتي عشرة قصة من قصصهم، كنجاتهم من آل فرعون بفرق البحر، وغرق فرعون وجنوده، ومواعدة الطور، واتخاذهم العِجل من بعده وأمر موسى إيّاهم بقتل أنفسهم، واقتراحهم من موسى أن يريهم الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ثم بعثهم الله تعالى، إلى آخر ما أُشير إليه من قصصهم التي كلها مشحونة بألطاف إلهيَّة وعنايات ربانية، ويذكرهم أيضّاً المواثيق التي أخذ منهم ثم نقضوها ونبذوها وراء ظهورهم، ويذكرهم أيضّاً معاصي ارتكبوها وجرائم اكتسبوها وآثاماً كسبتها قلوبهم على نهي من كتابهم، وردع صريح من عقولهم، لقساوة قلوبهم، وشقاوة نفوسهم، وضلال سعيهم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ ﴾ ، أصل العهد الحفاظ، ومنه اشتقت معانيه كالعهد بمعنى الميثاق واليمين والوصية واللقاء والمنزل ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿ فَٱرۡهَبُونِ ﴾، الرهبة الخوف، وتقابل الرغبة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ ﴾، أي من بين أهل الكتاب، أو من بين قومكم ممَّن مضى وسيأتي، فإن كفار مكة كانوا قد سبقوهم إلى الكفر به.

﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ

﴿رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ البقرة ٤٥-٤٦

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، الاستعانة وهي طلب العون إنما يتم فيما لا يقوى الإنسان عليه وحده من المهمات والنوازل، وإذ لا معين في الحقيقة إلا الله سبحانه فالعون على المهمات مقاومة الإنسان لها بالثبات والاستقامة والاتصال به تعالى بالانصراف إليه، والإقبال عليه بنفسه، وهذا هو الصبر والصلاة، وهما أحسن سبب على ذلك، فالصبر يصغر كل عظيمة نازلة، وبالإقبال على الله والالتجاء إليه تستيقظ روح الإيمان، وتتنبه: أن الإنسان متك على ركن لا ينهدم، وسبب لا ينفصم.

قوله تعالى: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين، الضمير راجع إلى الصلاة، وأما إرجاعه إلى الاستعانة لتضمن قوله: استعينوا ذلك فينافيه ظاهراً قوله: إلا على الخاشعين، فإن الخشوع لا يلائم الصبر كثير ملائمة، والفرق بين الخشوع والخضوع مع أن في كليهما معنى التذلل والانكسار أن الخضوع مختص بالجوارح والخشوع بالقلب.

قوله تعالى: الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم.

هذا المورد، أعني مورد الاعتقاد بالآخرة على أنه مورد اليقين لا يفيد فيه الظن والحسبان الذي لا يمنع النقيض، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ البقرة :٤، ويمكن أن يكون الوجه فيه الأخذ بتحقق الخشوع فإن العلوم التدريجية الحصول من أسباب تدريجية تتدرج فيها النفس المدركة من تنبه وشك ثم ترجح أحد طرفي النقيض ثم انعدام الاحتمالات المخالفة شيئا فشيئا حتى يتم الإدراك الجازم وهو العلم، وهذا النوع من العلم إذا تعلق بأمر هائل موجب لاضطراب النفس وقلقها وخشوعها إنما تبتدي الخشوع الذي معه من حين شروع الرجحان قبل حصول الإدراك العلمي وتمامه، ففي وضع الظن موضع العلم إشارة إلى أن الإنسان لا يتوقف على زيادة مئونة على العلم إن تنبه بأن له ربا يمكن أن يلاقيه ويرجع إليه وذلك كقول الشاعر: فقلت لهم ظنوا

بألفي مذحج.

سراتهم في الفارسي المسرد.

وإنما يخوف العدو باليقين لا بالشك ولكنه أمرهم بالظن لأن الظن يكفيهم في الانقلاع عن المخالفة، بلا حاجة إلى اليقين حتى يتكلف المهدد إلى إيجاد اليقين فيهم بالتفهيم من غير اعتناء منه بشأنهم، وعلى هذا فالآية قريبة المضمون من قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ الكهف: ١١٠، وهذا كله لو كان المراد باللقاء في قوله تعالى: ملاقوا ربهم، يوم البعث ولو كان المراد به ما سيأتي تصويره في سورة الأعراف إن شاء الله فلا محذور فيه أصلاً.

في الكافي: عن الصادق (عليه السلام) قال: كان علي إذا أهاله أمر فزع قام إلى الصلاة ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾.

وفي الكافي، أيضا: عنه (عليه السلام): في الآية، قال: الصبر الصيام، وقال: إذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة فليصم. إن الله عز وجل يقول: واستعينوا بالصبر يعني الصيام. أقول: وروى مضمون الحديثين العياشي في تفسيره.

وتفسير الصبر بالصيام من باب المصداق والجري.

وفي تفسير العياشي،: عن أبي الحسن (عليه السلام): في الآية قال: الصبر الصوم، إذا نزلت بالرجل الشدة أو النازلة فليصم، إن الله يقول: واستعينوا بالصبر والصلوة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين. والخاشع الذليل في صلاته المقبل عليها، يعني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين (عليه السلام).

أقول: قد استفاد (عليه السلام) استحباب الصوم والصلاة عند نزول الملمات والشدائد، وكذا التوسل بالنبي والولي عندها، وهو تأويل الصوم والصلاة برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين (عليه السلام).

وفي تفسير العياشي، أيضا: عن علي (عليه السلام): في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ

﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ البقرة ٤٦ الآية يقول: يوقنون أنهم مبعوثون، والظن منهم يقين.

أقول: ورواه الصدوق أيضا.

وروى ابن شهر آشوب عن الباقر (عليه السلام): أن الآية نازلة في علي وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر وأصحاب لهم.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول

تطابقت بنسبة كبيرة أقول المفسرين في هذا الموضوع، حيث تشعر كأنك تقرأ نصاً واحداً بتعابير مختلفة، وبمعنى شبه موحد لدى الجميع، وإن امتاز بعضهم عن البعض الآخر بإثراء تفسيره بمعلومات وإضافات علمية ذات قيمة وجميلة. وهذا النوع من التفسير هو ما نحبّ أن نراه مستمراً إلى نهاية التفسير. ولله الحمد أولاً وآخراً.